الفصل الأول
سماع الموسيقى والغناء

- لمحة تاريخية عن الغناء والموسيقى.
- تعريف السماع.
- العلاقة بين السماع والموسيقى العربية.
- علة طرف الأرواح بالغناء والنغمات العذبة.
- مقامات السامعين في:

(١) الفهم.

(٢) الوجد.

- آداب السماع.

الفصل الأول
سماع الموسيقى والغناء
(١) لمحة تاريخية عن الغناء والموسيقى

يعتبر الغناء فن من الفنون العريقة التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات في كل بقاع العالم أيًا كانت درجة تقدمه أو تخلفه الحضاري، فلكل مجتمع غناء وألحان موسيقية خاصة به متميزة عن نظيراتها في المجتمعات الأخرى.

وقد عرف الإنسان الغناء منذ فجر التاريخ؛ فقد ذكر "أبو جعفر الطبري" أن الذي اتخذ الملاهي رجل من أبناء "قابيل بن آدم" أبو البشرية يقال له: "ثوبال".

أما آلات اللهو، أي: الآلات الموسيقية، فاتخذت في زمان "مهلائيل بن قينان" وكانت من المزامير والطبول والعيدان، فانهمك ولد قابيل في اللهو ، وتناهى خبرهم إلى من بالجبال من نسل "شيث" فنزل منهم قوم وانتشر اللهو والغناء وفشت الفاحشة وشرب الخمر(١).

وإذا صحت هذه الرواية ؛ فإن الإنسان الأول يكون قد عرف الغناء والموسيقى منذ بداية الخليقة.

ومحاولة تحديد نشاة الغناء والموسيقى تحديدًا تاريخيًا صارمًا أمر ليس باليسر؛ حيث أن الغناء والموسيقى كانا لهما نشأة بدائية بسيطة، ثم تطورت على مر الأزمان والعصور، بل إن هناك من ذهب إلى أن محاولة تحديد نشأة الغناء مجهود ضائع وهدف لا يمكن الوصول إليه(٢).

للغناء والموسيقى إذن تاريخ طويل منذ العهود البعيدة ، وقد عرفه أصحاب الحضارات القديمة مثل قدماء المصريين واليونانيين والفرس، كما ألف الفيثاغوريون كتبًا في الموسيقى ووضعوا لها أصولاً نظرية، كذلك صنع أصحاب حضارة سبأ في اليمن والغساسنة في الشام والمناذرة في العراق، وكانت موسيقاهم أرقى من موسيقى

---

(١) ابن الجوزي البغدادي: تلبيس إبليس، ص٢٢٢.

(٢) ابن القيسراني: السماع، تحقيق أبو الوفا المراغي، ص١٢.

البدو فقد اصطنعوا من آلات العزف العود والطنبور والمعزف والمزمار وآلات ضبط الوزن والدفوف والصَّنْج[١].

وقد كان البدوي في الجاهلية شاعرًا بطبعه بغير علم ولا صناعة يتغنى بالرجز لبساطة تفاعيله وهو غناء قريب من الحداء يحدو به للإبل وبذلك كان الحداء أصل الغناء العربي كما ظهر منه النصب وهو الغناء المرتجل[٢].

وكان الغناء في بداية الأمر غير مصحوب بالآلات الموسيقية، ثم رؤي لزيادة تحسينه أن تصحبه الآلات الموسيقية[٣] فظهرت الآلات على اختلاف أنواعها واختلاف ترتيبها التاريخي وبدأت في صورة بدائية بسيطة، ثم تطورت وتنوعت وأصبحت على مر العصور فنًا وعلمًا متقدمًا حتى أن الكثير منها الآن يعمل بالكهرباء، كما يستخدم الكومبيوتر في عزف العديد من الألحان الموسيقية.

وارتبط الغناء بالشعر[٤] وصار الشعر الغنائي أكثر الأشعار انتشارًا وأغناها بالمعاني المحببة إلى النفس المثيرة للخيال وأقربها إلى القلوب.

ويذهب إخوان الصفا إلى أن أصحاب النواميس الإلهية من الحكماء استعملوا الموسيقى والغناء في الهياكل وبيوت العبادة وعند القراءة في الصلاوات، وعند تقديم القرابين والتفرغ والبكاء، كما كان يفعل داوود النبي عليه السلام عند قراءة مزاميره،

---

(١) انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١ ، ص١٢.

(٢) انظر: د/ أحمد فؤاد الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، ص٦١ (القاهرة ١٩٦٤).

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٣٨.

(٤) يذهب إخوان الصفا إلى أن ميزان الشعر وقوانينه مماثلة لقوانين العروض الذي يعرف به المقاطع الثمانية في الأشعار العربية وهي: "فعولن، مفاعيل، مستفعلن، فاعلاتن، فاعلن، مفعولات، مفاعيلن "، وهذه الثمانية مركبة من ثلاثة أصول وهي: "السبب، والوتد، والفاصلة" وكذلك قوانين والألحان ثلاثة أصول وهي : "السبب، والوتد، والفاصلة".

فأما "السبب" فنقرة متحركة يتلوها سكون مثل قولك: تن تن تن ويكرر دائما.

و"الوتد" ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك: تنن تنن تنن ويكرر دائما.

و"الفصلة" ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك: تننن تننن تننن، فهذه الثلاثة هي الأصل. انظر: إخوان الصفا ، ج ١ ، ص ١٤٤، الرسالة الخامسة في الموسيقى.

وكما يفعل النصارى في كنائسهم، كما تغنى المسلمون بالقرآن في مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة، فإن كل ذلك لرقة القلوب ولخضوع النفوس ولخشوعها والانقياد لأوامر الله تعالى ونواهيه والتوبة إليه من الذنوب والرجوع إليه سبحانه وتعالى باستعمال سنن النواميس كما رسمت[١].

كذلك ذهب إخوان الصفا إلى أن أحد الأسباب التي دعت الحكماء إلى وضع النواميس واستعمال سننها هو ما قدح لهم من موجبات أحكام النجوم من السعادات والمناحس عند ابتداء القرانات وتحاويل السنين من الغلاء أو الرخص أو الجدب أو الخصب أو القحط أو الطاعون والوباء أو تسلط الأشرار والظالمين وما شاكلها من تغيرات الزمان وحوادث الأيام، فلما تبين لهم ذلك طلبوا حيلة تنجيهم منها إن كانت شرًا وتوفر حظهم فيها إن كانت خيرًا، فلم يجدوا حيلة أنجى ولا شيئًا أنفع من استعمال سنن النواميس الإلهية التي هي الصوم والصلاة والقرابين والدعاء عند ذلك بالتفرغ إلى الله تعالى بالخشوع والخضوع والبكاء والتوبة والإنابة ليكشف عنهم ما قد توجبه أو أوجبته أحكام النجوم من المناحس والبلاء، وكانوا يستعملون عند الدعاء لله والتسبيح والقراءات ألحانًا من الموسيقى تسمى "المحزن"[٢].

وكانت تلك الموسيقى ترقق القلب وتبكي العين وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب وإخلاص السرائر وإصلاح الضمائر، فهذا في رأي إخوان الصفا كان أحد أسباب استخراج الحكماء للموسيقى واستعمالها في الهياكل وعند القرابين والدعاء والصلوات.

كما استخرجوا لحنًا آخر يسمى "المشجع" كان يستعمل في الحروب والهجاء وهو يكسب النفس شجاعة وإقدام.

واستخرجوا لحنًا يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المرهقة مثل ما يستعمله الحمالون والبناؤون وأصحاب المراكب يخفف عنهم تعب الأبدان والنفوس.

---

(١) إخوان الصفا، الرسالة الخامسة في الموسيقى ، ج١/ ص ١٣٥.

(٢) إخوان الصفا، الرسالة الخامسة في الموسيقى، ج١، ص١٣٥.

ووضعوا أيضًا ألحانًا أخرى تُستعمل عند الفرح واللذة والسرور في الأعراس والولائم.

كما وضعوا الألحان التي تخفف على الحيوانات ثقل أحمالها مثل الحداء[١] الذي يستعمل لتنشيط الإبل في السير ويخفف عنها الأحمال، كما يستعملها رعاة البقر والخيل والغنم عند ورودها الماء ترغيبًا لها في شرب الماء، كما يستعملون لها ألحانًا أخرى عند هيجانها ، وألحانًا أخرى عند حلب ألبانها لتدره، كما يستعمل صياد الغزلان والطيور ألحانًا يوقعها بها.

وتغني الأم لطفلها حتى يكف عن البكاء ويخلد على النوم[٢]، وهكذا تعددت الألحان وانتشر الغناء ومحبته الموسيقى، وأقبل الناس في كل زمان ومكان على سماعها والاستمتاع بها لما لها من تأثير في نفوس الإنسان والحيوان.

من ذلك ترى أن الغناء ظاهرة إنسانية فهي كما يقول الغزالي: اللذة الخاصة بحاسة السمع كما لكل حاسة من حواس الإنسان لذة خاصة بها، كما سنرى بعد.

ويذهب ابن خلدون إلى أن الغناء يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمال حيث أن الغناء والموسيقى في أي ابن خلدون لا يستدعيهما إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية اللازمة للمعاش فلا يطلبها إلا الفارغون من سائر أحوالهم تفننًا في مذاهب الملذوذات[٣].

---

(١) يذهب ابن الحوزي البغدادي إلى أن أول الحداء ما أنبأنا به يحيى بن حسن بن البنا، عن أبي جعفر بن المسلمة، عن المخلص، عن أحمد بن سليمان الطوسي، عن الزبير بن بكار، عن بعض علمائهم: أن رسول الله (ص) مال ذات ليلة بطريق مكة إلى حاد مع قوم، فسلم عليهم، فقال: إن حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت إليكم، فهل تدرون أنى كان الحداء؟ قالوا: لا والله، قال: إن أباهم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجد إبله قد تفرقت فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه ففر الغلام في الوادي وهو يصيح: يا يداه، يا بيداه، فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه (أي: جاءت نحوه) فقال مضر: لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت، فاشتق الحداء. انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) رسالة إخوان الصفا في الموسيقى، ج١، ص١٣٥-١٣٦.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٣٣٨.

ويذهب ابن خلدون أيضًا إلى أن الفُرس برعوا في الموسيقى وكان ملوكعم يهتمون بها ويولعون بها فاهتموا بأهل هذه الصناعة وكان لهم مكانة خاصة في دولتهم، وقد ازدهر فن الموسيقى عند الساسانيين فبلغ شأوًا بعيد المدى.

وكان اهتمام الفُرس بالموسيقى في دينهم ودنياهم ، ولذلك شواهد عدة تطالع من نظرة في تاريخهم أو شدا شيئًا من آدابهم(١).

وفي تركيا ازدهرت الموسيقى والغناء وخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني الذي عمَّ فيه الرخاء واستبحر العمران، وكان هذا السلطان رائد نهضة أدبية وعلمية هي أسمى نهضة عرفها الترك في الآداب والعلوم، وبلغ الشعر في عهده الشأو البعيد، وكان شعر العصور المتقدمة يجري نسق واحد ويكرر المعنى، واقترن شعر الحضارة التركية بالموسيقى والغناء(٢)، فهناك صلات وطيدة بين الشعر والموسيقى والغناء.

وقد تأثر الترك بالموسيقى الفارسية فتعلموا منهم من فنون الموسيقى والغناء ما لم يكن لهم به علم، وهذا يبدو واضحًا مما نلاحظه على أسماء النغمات والمصطلحات الموسيقية عند الترك، فنجد معظمها فارسي ومن اظهر الأمثلة على ذلك "كَاه" بمعنى مقام عند الموسيقيين وهي من "كا تا" بمعنى الأغاني وهو اسم جزء من كتاب مقدس لدى الفرس يسمى بـ"الابستاق" ودخلت في الفهلوية فأصبحت "كَاس"(٣) ويقال: إنها تلحق بأعداد فارسية فتصبح "دوكَاه" و"سه كَاه" و"جهاركَاه" على سبيل المثال فيسبقها العدد اثنان وثلاثة وأربعة ، ولهذا دلالة في مصطلح الموسيقى(٤).

---

(١) د/ حسين مجيب المصري، فارسيات وتركيات، ص٥٧، وانظر له أيضًا: صلات بين العرب والفرس والترك، ص٢٦٢.

(٢) دقائق رشا: تاريخ أدبيات عثمانية، ص ٢٦٩، برنجي جلد (استانبول).

(٣) انظر: د/ حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، ص ٤٤٨، وانظر له أيضًا: كتاب فارسيات وتركيات/ ص ٥٨ (القاهرة سنة ١٩٤٨).

(٤) د/ حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، ص٤٤٩.

كذلك كلمة "بشرو" وهي في الأصل كما يقول الدكتور المصري بمعنى "المتقدم" و"الرائد" أما عند الموسيقيين فتعني مقدمة موسيقية وتنطق في العامية المصرية "بشرف"[١].

وقد أخذ المصريون هذا عن الأتراك الذين أخذوه من قبل عن الفرس، ومن المعازف التي عرفها الترك "الناي" و"الكمان" والكلمتان فارسيتان، الأولى بمعنى القصبة، والأخرى بمعنا لقوس ، كما يسمي الفرس هذا المعزف "كمانجه" بمعنى القوس الصغيرة، وهي نفس الكلمة في العاميةا لمصرية وإن نطقت بكيفية مختلفة عن أصلها الفارسي شيئًا ما[٢].

أما العرب في الجزيرة العربية فكان الشعر له مكانة عظيمة عندهم في الجاهلية؛ ولذلك جعلوه –كما يقول ابن خلدون- ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطأهم ، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم[٣].

وكان رؤساء العرب منافسين في الشعر فكانوا يقفون في سوق عكاظ بمكة لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر –حسب تعبير ابن خلدون- وعلقوا أشعارهم بأركان البيت الحرام موقع حجهم، ثم انصرفوا عن الشعر في أول الإسلام لانشغالهم بأمر الدين والنبوة والوحي لما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه[٤].

وعندما استقر لهم الأمر ولم ينزل الوحي بتحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه، وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش مقامات فيه عالية ، وكان كثيرًا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبًا به[٥].

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) د/ حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، ص ٤٤٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ج٤، ص١٢٩٠.

(٤) المرجع السابق، ث ١٣١٢.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقد تغنى العرب بالشعر وعرفوا الحداء للإبل وكان الفتيان في فضاء خلواتهم يتغنون به ويترنمون ويسمعون الترنم إذا كان بالشعر غناء[١].

ثم انتشر الإسلام في بلاد العجم وكان العرب من البداوة والفظاظة على الحال التي عرفت لهم ... فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه وصاروا إلى نظارة العيش ورة الحاشية واستحلاء الفراغ أقبل المغنون الفرس والروم إلى الحجاز وصاروا موالي العرب وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمعوا العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم[٢].

فقد كان فن الموسيقى عند العرب قبل الإسلام بدائيًا واختلف اختلافًا جوهريًا عنه بعد الإسلام.

وقد حدثنا الفارابي عن الألحان الموسيقية في الجاهلية ولا يستبعد أن يكون ما أشار إليه الفارابي بقايا ألحان قديمة للعرب قبل الإسلام[٣] وأيا ما كان الأمر فليس هناك شك في أ، العرب قد تأثروا في هذا الفن بالفرس وأن هناك صلات قوية قد قامت بينهم في فن الغناء والموسيقى[٤].

ويرى ابن خلدون أنه لم تكن أمة من الأمم أولع بالطرب والملاهي والأغاني بعد الفرس والروم من العرب[٥].

وقد اشتهر بالغناء في الجاهلية "أعشى قيس" الذي كان كثيرًا ما كان يفد على بلاط الحيرة وبلاط كسرى والتقى بـ"أنو شروان" في المدائن ، وقد أورد في شعره كثيرًا من الألفاظ الفارسية ووصف مجالس الأنس عند الفرس.

وتغنت القيان في الحانات بألحان فارسية ورومية، وأما اللغة فكانت عربية أحيانًا وفارسية ورومية أحيانًا أخرى، ومن العلماء من ذهب إلى أنهن كن يتغنين بلغتهم

---

(١) أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص١٢.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) مهدي بركشلي: موسيقى در دوره ساساني، ص٩-١٠ طبع (طهران ١٣٢٦م).

(٤) د/ حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٦٣.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٣٣٨.

الفارسية واليونانية لا العربية[١] غير أن الدكتور حسين مجيب المصري يقول: : وفي رأي أن العرب لا يمكن أن يرضوا استماع الشعر العربي من فم أجنبي والذي نذهب إليه في ذلك أن هذا لا يمكن القطع فيه برأي وإن كان الأقرب إلى الصواب أن يكون هذا الغناء فارسي أو رومي اللحن عربي اللغة بدليل أن الأعشى مثلاً كان يتغنى بشعره العربي مقلدًا الفرس في ألحانهم ولا نعرف عنه أنه غنى بالفارسية، ولعل بعضهم كن يغنين بلسانهن"[٢].

ويقال: إن أول من غنى على العود بألحان الفرس "النضر بن الحارث بن كلدة" وقد وفد على كسرى فتعلم ضرب العود والغناء، وقدم مكة.

كما كان من أوائل من تغنى في الإسلام بألحان الفرس"سعيد بن مسجح" وذلك أن عبد الله بن الزبير لما وهى بناء الكعبة جدد بناءها وكان فيها صناع من الفرس يغنون بألحانهم فوقع عليها ابن مسجح الغناء أو الطرب العربي[٣].

ومن المعازف التي عرفها العرب عن الفرس "البربط" وهو "العود" ويقول لغويوا العرب في تفسير معنى الكلمة أنها من "بر" بمعنى "صدر" و"بط" بمعنى الطائر المعروف فكأنها بمعنى "صدر البط" والصحيح أن هذا المعزف قد سمي باسم "بريد" أو "باريد" هذا ثلاثمائة وستين لحنًا "لكسرى برويز"وسيقى قانونًا يلتزمه الموسيقيون جميعًا وكلهم أخذ عنه مقتد به[٤].

كما عرف العرب من الفرس آلة "الصنج" ذات الأوتار ، وقد استعار العرب من الفرس كلمة "دستان" وهو موضع الأصابع منا لعودج والطنبور كما سموا الوتر الأول والرابع "الزير" و"اليم" غير أنهم لم يغيروا اسم الوتر الثاني والثالث وهما "المثنى" و"المثلث"[٥].

---

(١) انظر: Farmer : A History of Arabic music. P.١٢ . (London, ١٩٢٩).

(٢) د/ حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٦٣.

(٣) انظر: النواجي: حلية الكميت، ص ١٨١، و٢٦٤، (القاهرة ١٢٩٩).

(٤) انظر: Christensen: L'Empire des sassan-ides. P. ١٠٤ (Kovenhavn , ١٩٧٠).

(٥) انظر: Farmer : A History of Arabic music. P.٧٠ . (London, ١٩٢٩).

وقد كان الفرس أشهر من تغنوا وعزفوا الموسيقى بين العرب ومن المغنين الفرس أسماء عديدة نجدها مدونه في كتاب الأغاني للأصفهاني[١].

وقد أخذ العرب عن الفرس كلمة "خيناكر" و"خناكَر" بمعنى المغنى والموسيقى وصاغوا منها فعل عربي الوزن وهو "خنكر" أو "غنى"[٢] فيقال: "يخنكر" أي: "يغني".

وما زالت صناعة الغناء تتدرج عند العرب حتى اكتملت في أيام بني العباس عند "إبراهيم بن المهدي" و"إبراهيم الموصلي" وابنه "إسحاق" وابنه "حماد" وكان ذلك في دولتهم ببغداد[٣]، وكان الغناء سبيلاً إلى جوائز الخلفاء وصلاتهم التي كانت تكاد تخرج عن حد التصديق فقد قال إبراهيم بن جامع: "أخذت من الرشيد ببيتين غنيته إياهما عشرة آلاف دينار"[٤].

واكتظت المدينة بدور اللهو والغناء التي كانت تطلب دائمًا شعرًا تغنيه مغنياتهم ومغنيهم وكانوا إذا فقدوه في المدينة طلبوه في شعر البادية[٥].

وكانت مكة تنافس المدينة في الغناء وإن كانت نهضتها قد جاءت متأخرة عن نهضة المدينة ومستمدة منها ومتأثرة بها ، وكان من أبرز الشعراء في مكة عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغنائي، وقد جرف تبار الشعر الغنائي شعراء المدينة حتى الفقهاء والمحدثين، "فعروة بن أذينة" كان معدودًا من الفقهاء والمحدثين ومع ذلك نظم الشعر الغنائي بل غنى بما كان ينظمه فيه، وله فيه اصوات معروفة كما ورد في كتاب الأغاني[٦].

---

(١) انظر: الأصفهاني، الأغاني، ص ٢٧٨-٢٧٩، ج١ (القاهرة ١٩٢٥).

(٢) انظر: النويري: نهاية الأرب ، ص ٣٦٨، ج٤ (القاهرة ١٩٣٥).

(٣) أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص١٢، (القاهرة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م).

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٤، ص٢٢٩.

(٥) انظر: د/ شوقي ضيف، الشعر الغنائي في المدينة من ص١٤١-١٤٨.

(٦) انظر: الأصفهاني، الأغاني، وانظر أيضًا ابن القيسراني، كتاب السماع تحقيق أبو الوفا المراغي ، ص ١٤ (القاهرة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م).

وكذلك عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وهو أحد الفقهاء السبعة المقدمين بالمدينة[١].

وما زال الشعر الغنائي والغناء ينمو ويزدهر وارتبط بالأدب الرقيق وزاحم فنون الشعر وأقبل عليه الجمهور، ومما ساعد على ذلك اتصاله بالطبيعة البشرية وميلها إليه استرواحًا من هموم الحياة وأثقال العيش، ولعذوبة موسيقاه ووضوح معانيه وسهولة ألفاظه مما قربه إلى العامة وسلكهم مع الخاصة في استساغته وتذوقه. هذا مع تطور القيم في المجتمعات التي أصبحت تنفر من الملق في شعر المديح وتستكره الفحش والإقراع في شعر الهجاء، وأصبح التفاخر بالماضي ضربًا من استجداء الأموات، وجرى الشعر الغنائي على ألسنة الناس يلتقطونه من أفواه المغنيين ما يتفق مع أذواقهم[٢].

ويقول الدكتور الأهواني: "في هذا الجو الفني المعبق بعبير الغناء والموسيقى المملوء بالمناقشات الحامية حول محاسن الألحان ونقدها وتقديرها والمنازعات الشديدة حول تمسك بقديم عربي مأثور ومحافظة عليه واتباعه، أو تحرر وتجديد وأخذ بموسيقات الفرس والروم وبخاصة بعد ترجمة كتب اليونان في الموسيقى ظهر "أبو يوسف يعقوب الكندي" يفصل علميًا في المناقشات ويشد أزر الروح العربية ويضع للمغنيين والموسيقيين الأصول النظرية التي تبنى عليها أنواع الغناء والألحان الموسيقية بما يكفل لها أن تكون سبيلاً واضحًا مضبوطًا للمتعلمين"[٣].

وقد اعتبر "الكندي" صاحب أول مدرسة للموسيقي في الإسلام كما اعتبر "إسحاق الموصلي" صاحب أول مدرسة للغناء ثم تطورت مدرسة "الكندي" على يد "الفارابي" الذي ألف كتاب "الموسيقى الكبيرة" ووضع فيه أسس التعاليم الصوتية. وبلغت المدرسة ذروتها عند "الشيخ الرئيس ابن سينا" الذي فصل في كتابه "جوامع علم الموسيقى" فصلاً تامًا بين الموسيقى كعلم والموسيقى كفن وصنعة.

---

(١) د/ شوقي ضيف، الشعر الغنائي، ص١٤٢، ١٤٨.

(٢) ابن القيسراني: السماع، تحقيق أبو الوفا المراغي (القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ١٤،١٥.

(٣) انظر:د.أحمد فؤاد الأهواني: الكندي الفيلسوف العربن ص١٦٥.

غير أن كتب الكندي ظلت النبراس الذي استضاء به كل من جاء بعده والتي من أشهرها كتاب "في خبر صناعة التأليف" وكتاب "المصوتات الوترية" وكتاب "في تأليف النغم وصناعة العود" ثم كتاب "الرسالة الكبري في التأليف"[١].

وكان لتلك المؤلفات وغيرها مساهمة عظيمة في تقدم علم الموسيقى لدي العرب.

وإذا كان العرب قد ترجموا[٢] مصنفات اليونان في الموسيقى في عهد الكندي واطلع عليها إلا أنه سار على ترتيب موسيقي مخالف لها وقد أعلن ذلك في قوله في كتاب "في أجزاء خبرية في الموسيقى": "سألت إيضاح أصناف الإيقاعات وكميتها، وكيفية ترتيبها وأزمانها وكيفية استعمال الموسيقى لها في الزمن المتاح إليها فيه: إذ كان أهل العصر من أهل هذه الصناعة الأغلب عليها لزوم العادة لطلب موافقة من حضرهم عند استعمالهم من اليونانيين من استعمالها على حسب الترتيب الأوجب فيها فرأيت إجابتك إلى هذا"[٣].

ويرى الدكتور الأهواني أن هذا النص يوضح كيف أن "الكندي" يحمل لواء القومية العربية في وجه التيارات الأجنبية وبخاصة التأثير اليوناني، فنحن نعرف أن مؤلفات اليونان مثل "ارستكسينوس" و "إقليدس" و "بطليموس" و "نيقوماخوس" الموسيقية قد ترجمت في عصر "الكندي" ولكنه يعلن في غير موارية أنه ينبغي السير بترتيب موسيقي يخالفها. وقد ذكر في آخر رسالته الكبري ما يؤيد ذلك ويدل على معرفته بمذاهب الأمم الأخرى في الموسيقى وأنه التزم بالقوانين العربية[٤].

ولا شك أن الكندي كان مدركًا للذوق العربي في الموسيقى وما يطرب العرب من ألحان وأنغام وما لا يتناسب مع ذوقهم العربي الذي له طابع متميز.

---

(١) د.الأهواني.الكندي فيلسوف العرب وانظر أيضًا.محمد أحمد الحفني- سلسلة في تراثنا الموسيقى (القاهرة ١٩٥٩)- حقق الأستاذ/ زكريا يوسف الرسالة الكبري في التأليف" كما نشر بحثًا صغيرًا بعنوان "موسيقى الكندي" (بغداد ١٩٦٢م).

(٢) انظر: فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة د.حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦).

(٣) انظر: د.الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، ص ١٦٧.

(٤) انظر: د. الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، ص١٦٧.

ومن الملاحظ أن لكل شعب من شعوب العالم ذوقه الموسيقى الخاص به. وإذا كان العرب قد أخذوا شيئًا من موسيقي الفرس أو تأثروا بالموسيقي اليونانية إلا أن الموسيقى العربية كان لها طابع خاص تميزت به.

وقد لاحظ "الكندي" تلك الفوارق المزاجية بين الشعوب وأوضح كيف أن كل شعب يطرب لسماع آلة موسيقية بعينها وقال ما نصه: "فإن الفارسي يطرب بالاراثمين والناقوس، والهندي والرومي لا يطرب بالطنبور الخراساني"(١).

وهو يرد هذا الخلاف في استعمال الآلات المصوتة سواء بالنقر أو العزف أو الأوتار إلى طبيعة البيئة التي تؤثر في صور الآلات كما تغير صور أهل تلك البلاد وأخلاقهم وعاداتهم ولغاتهم.

ففي الهند يستعملون آلة ذات وتر واحد تسمي "كنكة"، وفي خراسان ونواحيها يستعملون آلة ذات وترين لأنهم كانوا من الاثنينية ويعتقدون أن العالم وما فيه لا ينفك عن الاثنينية (ليل ونهار- حركة وسكون- خير وشر) وقد شدوا على الآلة ذات الوترين سبعة دساتين أو أكثر لتنتقل عليها أصابع اليد. والروم الذين يعتقدون بثلاث مبادئ فقد صنعوا آلة شدوا عليها ثلاثة أوتار وثلاثة دساتين. أما الروم الذين اعتقدوا في العناصر الأربعة فقد شدوا على العود أربعة أوتار وهي الآلة الأكثر استعمالاً عند الخاصة والعامة"(٢)

وقد قسم الكندي الموسيقى إلى بابين كبيرين هما: الألحان والإيقاع. وتحدث عن كل قسم بالتفصيل وعمل نوتة موسيقية سار عليها الفارابي وابن سينا ومن جاء بعدهما(٣).

---

(١) انظر كتاب الكندي- المصوتات الوترية من ص ٧٢:٨٠ حيث يتحدث الكندي بالتفصيل عن مذاهب كل أمة وأثر ذلك في الآلات التي تستخدمها.

(٢) انظر الكندي: المصوتات الوترية من ص٧٣: ص٨٠ وانظر أيضًا د.أحمد فؤاد الأهواني. الكندي فيلسوف العرب ص١٦٩،١٦٨.

(٣) انظر ابن سيناء جوامع علم الموسيقى، ص٨١، د.أحمد فؤاد الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، ص ١٨٠، ١٨١.

كذلك كان لإخوان الصفا أبحاث ودراسات في الموسيقى وأثرها على الأرواح والأبدان وقد خصصوا الرسالة الخامسة من رسائلهم في الموسيقى ولم يغفلوا فيها شيئًا يتعلق بالموسيقى دون أن يتعرضوا له، وهم يتفقون مع الكندي في أن لكل أمة من الناس ألحانًا ونغمات يستلذون ويفرحون بها لا يستلذون غيرها ولا يفرح بها سواهم مثل غناء الديلم والأتراك والأعراب والأرمن والزنوج والفرس والروم وغيرها من الأمم المختلفة الألسن والطباع والأخلاق والعادات(١).

وإذا صح هذا الحكم إلى درجة كبيرة إلا أنه ليس بالحكم المطلق؛ فإن لكل أمة موسيقى خاصة بها وألحان مميزة غير أن ذلك لا يعني أن أهل كل أمة لا يطربون إلا لموسيقاهم وأغانيهم الوطنية وإنما قد يطرب العربي لسماعه الغناء والموسيقى الهندية أو الغربية ويُقبل على سماعها وهذا هو الملاحظ فعلاً إلى جانب حبه وطربه للموسيقى العربية.

أما أهل الأندلس فقد شاع الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنسيق فيه للغاية وتغنى به المطربين والمطربات واستحدث المتأخرون منه فنًا سموه "بالموشح" ينظمونه أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويلتزمون عند القوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة(٢).

وكان من أعلام الموشحين في الأندلس "ابن زهر" و"ابن بقي" و "أبو بكر الأبيض" والحكيم الفيلسوف "أبو بكر بن باجة" صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة عن "ابن باجة" أنه حضر مجلس مخدومه "ابن تيفلويت" صاحب "سرقسطة" فألقى بعض قيناته موشحه قال في مطلعها:

جـــرر الـــذيل أيمـــا جـــر وصـــل الشـــكر منـــك بالشـــكر

(١) إخوان الصفا ، رسالة في الموسيقى، ج١، ص١٤٣

(٢) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، ج٤، ص١٣٢٧ (القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩٦٢م).

فطرب الممدوح لذلك. فلما ختمها بقوله:

عقـــــد الله رايـــــة النصـــــر لأميـــــر العـــــلا أبـــــي بكـــــر

فلما طرق ذلك التلحين سمع "ابن تيفلويت" صاح: واطرباه، وشق ثيابه وقال: "ما أحسن ما بدأت وما ختمت".

وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي "ابن باجة" إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم "ابن باجة" سوء العاقبة. فاحتال بأن جعل ذهبًا في نعله ومشى عليه[١].

ولما شاع فن التواشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابًا. واستحدثوا فنًا سموه "بالزجل" والتزموا فيه بالنظم على مناحيهم فجاء وافيًا بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم[٢].

وقد تصور الكندي أن هناك علاقة بين الأنغام الموسيقية السبع وبين الكواكب السبعة الجارية فجعل:

- مطلق البم[٣] يناظر زحل.
- وسبابة البم يناظر المشتري.
- ووسطى البم يناظر المريخ.
- وخنصر البم يناظر الشمس
- وسبابة المثلث يناظر الزهرة.
- ووسطى المثلث يناظر عطارد.
- وخنصر المثلث يناظر القمر.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، ج٤، ص١٣٢٦ (القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩٦٢م).

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤٠.

(٣) أوتار العود أربعة وهي من الغلظ إلى الحدة – (البم- المثلث- المثني- الزيد). وهي تسمي اليوم (عشيران- دوكاه- نوي- كردان) والبم وتر من أمعاء وهو رقيق متساوي الأجزاء ليس فيه موضع أغلظ ولا أرق من موضع، ثم يطوى حتى يصير أربع طبقات ويفتل فتلاً جيدًا.

وجعل البروج الاثنا عشر تناسب الأوتار الأربعة والدساتين الأربعة والملاوى الأربعة.

- الحمل والسرطان والعقرب والدلو لأنها بروج منقلبة تناسب الملاوى التي من شأنها الالتواء والانقلاب.

- الثور والأسد والعقرب والدلو لأنها بروج ثابتة تناسب الدساتين التي من شأنها الثبات في مواقفها.

- الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت تناسب الأوتار الأربعة(١).

وقد كان الكندي متأثرًا في ذلك بمذاهب الصابئة في قوله بذلك وبمذهب فلاسفة اليونان والفلسفة الإسكندرانية.

أما الفارابي وابن سينا لم يعترفا بهذه الصلة بين الأفلاك والموسيقى، وقد أعلن ابن سينا صراحة في كتابة "جوامع علم الموسيقى" أنه لم يلتفت إلى محاكيات الأشكال السمائية والأخلاق النفسانية بنسب الأبعاد الموسيقية؛ لأن ذلك من سنة الذين لم تتميز لهم العلوم بعضها عن بعض، ولأن أصحابها قوم قدمت فلسفتهم وورثوها غير ملخصة فاقتدى بهم المقصرون ممن أدرك الفلسفة(٢).

ويعلق الدكتور الأهواني على قول "ابن سينا" بأن أغلب الظن أن الشيخ الرئيس يومئ بهذه الإشارة إلى فيلسوف العرب "الكندي"(٣)؛ لأن الكندي تأثر في قوله هذا بالفلسفات القديمة التي ربطت بين الموسيقى والفلك.

كذلك فعل إخوان الصفا الذين تصوروا أن لحركات الأفلاك نغمات كنغمات العيدان الموسيقية، وذهبوا إلى أن حركات الأفلاك لها أصوات ونغمات طيبة مفرحة

---

(١) لمعرفة المزيد من التفاصيل في حديث الكندي عن علاقة الأنغام الموسيقية بالأفلاك انظر الكندي. المصوتات الوترية وانظر: أيضًا زكريا يوسف موسيقى الكندي ود. الأهواني الكندي فيلسوف العرب ، ص١٨٨،١٨٧،١٨٦.

(٢) انظر: ابن سينا: جوامع علم الموسيقى وانظر أيضًا د. أحمد فؤاد الأهواني، الكندي فيلسوف العرب ص١٨٨.

(٣) د.أحمد فؤاد الأهواني. الكندي فيلسوف العرب، ص١٨٨.

لنفوس أهلها من الملائكة، وأن تلك النغمات تذكرهم بعالم الأرواح التي فوق الفلك والتي جوهرها أشرف من جواهر عالم الأفلاك أو عالم النفوس[١].

كما تصوروا علاقة بين أوتار العود وبين عناصر الطبيعة الأربعة "النار – الهواء – الماء – التراب" فقالوا: الحكماء الموسيقاريون إنما اقتصروا في أوتار العود على أربعة لا أقل ولا أكثر؛ لتكون مصنوعات مماثلة للأمور التي دون فلك القمر. اقتداء بحكمة الباري جل ثناؤه.

فوتر "الزير"[٢] مماثل لركن "النار" ونغمته مناسبة لحرارتها وحدتها.

ووتر "المثنى"[٣] مماثل لركن "الهواء" ونغمته مناسبة لرطوبة الهواء اللينة.

ووتر "المثلث" مماثل لركن الماء ونغمته مناسبة لرطوبة الماء وبرودته.

ووتر "البم" مماثل لركن التراب أو الأرض ونغمته مماثلة لثقل الأرض وغلظها[٤].

تلك لمحة سريعة عن تاريخ الموسيقى والغناء ننتقل منها إلى تعريف السماع.

---

(١) اخوان الصفا، رسالة في الموسيقى، ج١،ص١٤٤.

(٢) "الزير" وتر في العود ويسمى اليوم "كردان" وهو طبقة واحدة ويصنع من الحرير.

(٣) "المثنى" وتر في العود ويصنع من الإبريسم، أي الحرير وهو من طبقتين يفتلان جيدا. وقياسه قياس المعي في الغلظ والرقة.

(٤) انظر إخوان الصفا- رسالة في الموسيقى،ج١، ص١٤٤. كان العود يتركب بالفعل من أربعة أوتار ولكن الكندي أضاف إليه نظريا وترًا خامسًا هو "الزير الثاني" ويختص كل وتر بستة أصوات أولها مطلق الوتر وتستخرج الأصوات الباقية بالعفق بواسطة الأصابع على هذا الترتيب "السبابة – الوسطى – البنصر – الخنصر" انظر د.الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، ص١٧١.

(٢) تعريف السماع

للسماع مفهوم واسع فهو يشتمل على كل ما يسمعه الإنسان من أصوات عذبة وأغنيات وأشعار وموسيقى ونثر وقرآن وغيرها، وهو عامة يدل على السمع أو الاستماع وآلته الأذن[١] والإحساس بالأصوات[٢] وآلته القوقعة، والمنبه الصوتي وهو عبارة عن موجات هوائية تصل القوقعة عن طريق الطبلة والعظيمات والسائل اللمفي الموجود في الآذن الباطنة[٣].

وقد عرف السمع بأنه "قوة مودعة في العصب المفروش في مقعرة الدماغ تدرك بها الأصوات بطريق وصول الهواء المكيف بكيفية الصوت إلى الصماغ" وقيل: إن السماعي في اللغة هو ما نسب إلى السماع[٤].

وقد قال الإمام القرطبي في "كشف القناع": السماع في كلام العرب مصدر. يقال: سَمِعَ سمعًا وسِماعًا. بدليل قولهم: أخذ العلم عنه سمعًا وسماعًا، أي: مشافهة ومكالمة.

---

(١) من أجزاء الأذن الرئيسية الطبلة وسلسلة العظيمات ثم الأذن الباطنة وهي تقوم بوظيفتين: الإحساس والتوازن وآلته الكييس والشكية والقناوات الهلالية الثلاثة. انظر د.يوسف كرم. مبادئ علم النفس العام ص٦٥.

(٢) الأصوات نوعان: حيوانية وغير حيوانية. وغير الحيوانية أيضًا نوعان طبيعية وآلية فالطبيعة هي كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات. والآلية كصوت الطبل والبوق والزمر والأوتار وما شاكلها.

والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية. فغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات الغير ناطقة، وأما المنطقية فهي أصوات الناس وهي نوعان: دالة وغير دالة. فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح وبالجملة كل صوت لا هجاء له، وأما الدالة فهي الكلام والأقاويل التي لها هجاء، وكل هذه الأصوات إنما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام، انظر إخوان الصفا – ج١، ص ١٣٧، رسالة في الموسيقى.

(٣) الذبذبات الصوتية التي تدركها الأذن البشرية تتراوح سلمها بين ٢٠ و ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية.

(٤) الجرجاني، التعريفات، ص١٠٧، ط١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

وقد يقال أيضًا على الفهم للمسموع كما قال الله تعالي: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[١] أي: أفهمهم[٢] فهذا هو معنى السماع في اللغة والشرع.

وللصوت المسموع خصائص عامة هي:

(١) الشدة: أو سعة الموجة ويقابلها ما يعرف بالرنة loundness فيقال صوت قوي أو ضعيف.

(٢) التردد: أو طول الموجة ويقابله ما يعرف بالمقام pitch وتتراوح درجته بين الحاد والغليظ.

(٣) درجة التركيب ويقابله الكيفية الصوتية timpey وتمتاز به الأنغام الصادرة عن الآلات مختلفة من حيث أجزائها الرنانة سواء كانت أوتار أو خشب أو نحاس أو غيرها. وتراجع الكيفية إلى تركيب النغمة الاساسية بنغمات أخرى تعرف بالنغمات التوافقية[٣].

وتعتبر الأذن البشرية أدق تحليلاً وأكثر تمييزًا للكيفيات الصوتية من العين في تحليلها للكيفيات الضوئية، فليس في إمكان العين تحليل الألوان المركبة إلى ألوان بسيطة، بينما الأذن المدربة تميز بين النغم الأساسي والأنغام التوافقية. ولهذا السبب لا تفوق لذة فنية ما تجلبه الأنغام الموسيقية للنفس من نعيم ومتعة[٤].

ولحاسة السمع ما للحواس الأخرى من قيمة عقلية فهي تدرك الأصوات البعيدة مما يتيح فرصة للاستعداد لمواجهة الموقف بطريقة ناجحة. وهي أقل الحواس مادية وأقواها استخدامًا للرموز والإشارات العقلية كالرموز اللغوية التي يصطنعها التعبير اللفظي[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية ٢٣.

(٢) محمد أبي الهدى المكنى بأبي البركات، أحكام الذكر والسماع ٤٣.

(٣) انظر د.يوسف مراد. مبادئ علم النفس العام. الطبعة الرابعة، ص٦٥.

(٤) انظر د. يوسف مراد. مبادئ علم النفس العام، الطبعة الرابعة، ص٦٦، ٦٧.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

هذا عن السماع عمومًا، أما الصوفية فإنهم يطلقون السماع على فهم يقع لأحدهم بغتة يكون عند وجد وغيبة سواء كان ذلك من نظم أو نثر أو غيرها[١].

فالسماع عند الصوفية له معني خاص فهو رياضة عملية يصطنعونها لترقيق القلب وتهيأته بإثارة الوجد وتزكية نار الحب والشوق في قلوب عشاق الله تعالى بالسماع إلى صوت خاشع رخيم يتغنى بكلمات منظومة على نغمات موزونة تحمل معاني الحكمة والزهد والترغيب والترهيب ما يثير انفعال السامع من شوق وطرب وحزن وأنس ورجاء، وغيرها من الانفعالات الكامنة في نفوسهم فيتواجدون ويسقطون ما يسمعون على أحوالهم مع الله، وقد يبلغ وجدهم مقامًا أعلي يغني السامع عن أحواله يغني عما حوله ويبقي بالله فيحدث له حال من الاتصال الروحي بالله في لحظة عابرة فينعم بلذة القرب ويجني ثمرة الاتصال.

وهناك سماع الخاصة وهو سماع القرآن الكريم وما تحمله آياته من المعاني الجليلة العميقة إذا استمع لها بإنصات وتدبر تقوى الهمم وتشعل الوجد في الصدور وتسمو بالأرواح وتثير فيها العواطف الكامنة من أثر المحبة المتزايدة للحق فتهيم حبًا وشوقًا وتزداد اتصالاً وقربًا حتى تصل بصاحبها إلى حال من الجذب والوجد والإشراق القلبي.

كما أن الصوفية لحضورهم الدائم مع الله قد يتواجدوا عند سماع العبارات والألفاظ العادية والأصوات المختلفة كتغريد الطيور وخرير الماء وغيرها. كما سيأتي تفصيله.

وقد جاء في مصنفات الصوفية تعريفات عديدة للسماع نذكر أهمها ثم نتبين معًا تعريف الغزالي للسماع:

(١) عرف ذو النون المصري[٢] السماع بقوله: "وارد حق جاء يزعج القلب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق"[٣].

---

(١) محمد بن أبي الهدى المكنى بأبي البركات، أحكام الذكر والسماع، ص ٤٣.

(٢) هو أبو الفيض توبان إبراهيم المصري وهو من كبار صوفية مصرفي القرن الثالث الهجري ولد سنة ١٥٥هـ وتوفي سنة ٢٤٥هـ وكان والده نوبيا ويعد من اوائل من تكلموا في المعرفة الصوفية. انظر طبقات السلمي، ص١٠.

(٣) القشيري. الرسالة، ج٢، ص٦٤٤.

وفي هذا التعريف يرى ذو النون أن السماع يحرك القلب ويثير الوجد إذا كان من يستمع إليه صادق الحال، وأما من يسمع طلبًا للمتعة والطرب فهو في رأيه زنديق.

وقد قال ذو النون عن الصوت الحسن: "هو مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة"[١].

(٢) وقد عرف محيي الدين بن عربي السماع بأنه "الانتباه بالقلب إلى ما يحمد شرعًا[٢] واستماع القول الذي أثنى الله عليه وأمر باستماعه واتباع أحسنه"، وهو عنده رياضة عملية يصطنعها الصوفية للوصول إلى الوجد وإثماره في القلب ومقام من مقامات السالكين ومنزل عظيم الفائدة لترقيق القلب وإثارة الوجد، ولكنه أيضًا مزلة قدم لمن لا شيخ يرشده ولا علم يحميه، وأما إذا كان السامع عالم بالشرع وعامل به ومسترشد بشيخ يهديه وصادق الحال؛ فإن سماعه يثمر فهو يسمع من الحق ويشهد أن لا مخاطب له سوى الحق فيمتثل لكل ما يفيضه عليه، ويقول ما نصه: "السماع من مقامات السالكين، وهو منزل عظيم الفائدة من منازل القلب، وهو مزلة قدم لمن لا تحصيل له ولا شيخ يرشده... يخرج فيه المريد على أن يسمع من الحق ولا يرى أن أحدًا في الوجود يخاطبه غير الله تعالى فهو ممتثل لكل ما يؤمر به"[٣].

(٣) وقد عرف الجنيد[٤] السماع بقوله: "السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه"[٥] أي: أن السماع فتنة لمن يطلبه للمتعة والطرب، ويكون ترويحًا عن النفس لمن يصادف في نفسه صدى أو أثر كريم.

---

(١) عبد الكريم القشيري، الرسالة، ج٢، ص٦٤٤.

(٢) ابن العربي: المواقع، ص١٦٤.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) هو أبو القاسم الجنيد محمد الحراز من العراق من صوفية القرن الثالث الهجري، توفي سنة ٢٩٧. انظر الطبقات الكبري للشعراني وانظر طبقات السلمي، ص٣٦.

(٥) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٦٤٤.

وقد قال الجنيد: "الرحمة تنزل على الفقير في ثلاث مواقع: عند الأكل فإنه لا يأكل إلا عن حاجة، وعند الكلام لأنه لا يتكلم إلا لضرورة، وعند السماع لأنه لا يسمع إلا عن وجد"(١).

(٤) وقد عرف الشبلي(٢) السماع تعريفًا يشبه تعريف الجنيد له حيث قال: "السماع ظاهره فتنة، وباطنة عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد استدعي الفتنة"(٣).

وفي هذا التعريف يوضح الشبلي أن السماع له ظاهر وباطن، فظاهره اللهو والغناء وهو لذلك فتنة لمن طلبه لهذا الغرض، وباطنه ترقيق القلب وتهيئته للاتصال الروحي بالله عز وجل والتقرب إليه تعالى وهو لذلك عبرة. ومن عرف العبرة من السماع وكان صادق الحال حل له الاستماع إليه والاعتبار به.

(٥) وعرفه أبو يعقوب النهرجوري(٤) بقوله: "السماع حال يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق"(٥).

وفي هذا التعريف يرى النهرجوري أن السماع وسيلة تشعل نار الحب الإلهي في قلوب السامعين من عشاق الحق يصل فيه السامع إلى حال الفناء وتشرق الأسرار الإلهية على قلبه الذي تلظى بنار الحب الإلهي.

(٦) وعرف "أبو علي الروزباري"(٦) السماع بقوله: "السماع هو مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب"(٧).

---

(١) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٦٤٤.

(٢) هو أبو بكر الشبلي ويقال اسمه جعفر بن يونس من خرسان ولد ببغداد ادوكان صاحب الجنيد. توفي سنة٣٣٤ وهو تلميذ خير النساج. انظر الرسالة القشيرية، ج٢، ص٦٤٥.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) هو إسحاق بن محمد النهرجوري من كبار الصوفية صحب الجنيد واقام بالحرم سنين طويلة مجاورا وتوفي به سنة ٣٠٣هـ انظر طبقات السلمي، ص٦٢.

(٥) القشيري، الرسالة، ج٢، ص ٦٤٥.

(٦) هو أبو على أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار ابن مهرذاذار بن فرغدر بن كسري، وهو من أهل بغداد سكن مصر وصار شيخها ومات بها صحب الجنيد وابا الحسن النوري توفي سنة ٣٢٢هـ. انظر طبقات السلمي، ص٨٧.

(٧) القشيري الرسالة، ج٢، ص٢٤٩.

وهذا التعريف يشبه التعريف السابق في أنه يرى أن السماع يؤدي إلى حال المكاشفة والمشاهدة القلبية للحق سبحانه واطلاعه تعالى الواصلين إلى حضرته ومكاشفتهم بالأسرار الإلهية والمعرفة اللدنية.

وقد سئل "الروزباري" عمن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: قد وصل لعمري ولكن إلى صقر[١].

وهذا يعني أن السماع عنده لا يكون بالتغني بقصائد الغزل واللهو الرخيص، وإنما يكون بالإنشاد الديني والأشعار التي تقرب العبد من ربه وتذكره بدار القرار وتزهده في الدنيا وتقوي عزيمته. أما من يسمع أغاني اللهو والمجون ويدعي أنها لا تؤثر فيه لأنه وصل إلى درجة أو مقام أعلي من أن تؤثر فيه مثل هذه الكلمات؛ فإنه يكون غير صادق وسماعه لها يؤدي به إلى الهلاك فيكون من أهل النار.

(٧) وقد عرف "سهل[٢] بن عبد الله التستري" السماع بقوله: "السماع علم استأثر الله تعالى به، لا يعلمه إلا هو"[٣]. وفي هذا التعريف يعتبر "سهل" أن السماع سر من الأسرار الإلهية، وربما ذلك لأن السماع يثير في قلب المستمع وجدا وانفعالات وعواطف فياضة لا يعلم سر انبعاثها بمجرد السماع إلا الله.

(٨) وعرفه الكلبازي[٤] بقول:ه "السماع استجمام من تعب الوقت وتنفس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار لذوي الأشغال"[٥].

ويوضح هذا التعريف أهمية السماع في الترويح عن النفس من كثرة الجد؛ لأن فيه متنفس لأصحاب الأحوال، وأنه يثمر استحضار الأسرار والمعارف الذوقية.

(٩) وقال السهروردي البغدادي عن السماع ويعني (سماع القرآن الكريم): "هو السماع الحق لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان محكوم بالهداية واللب وهذا سماع

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسي بن عبدالله ابن رفيع التستري أحد أئمة القوم.

(٣) القشيري. الرسالة، تحقيق د.هبه عبد الحليم محمود محمود الشريف، ج٢، ص٦٤٩.

(٤) هو تاج الإسلام أبو بكر محمد الكلبازي (٣٨٠هـ - ٩٩٠هـ).

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع لأنه تارة يثير حزنًا والحزن حار، وتارة يثير شوقًا والشوق حار، وتارة يثير ندمًا والندم حار. فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكي وأدمع، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء.

فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره على الجسد ويقشعر منه الجلد، قال تعالي: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[١][٢] وهنا يوضح السهروردي أثر سماع القرآن الكريم على السامعين جسميًا ونفسيًا، فهو يبعث الوجد والحضور مع الله فتدمع العين وتقشعر الأجسام.

(١٠) وعرفه زكريا الأنصاري بقوله: "السماع هو الانتباه بالقلب إلى ما يحمد شرعا"[٣] وهذا التعريف عول فيه الأنصاري على دور القلب في الانتباه لمعاني المسموع والانفعال بها على أن يكون ما يسمع موافقًا للشرع وملتزمًا بآدابه.

(١١) أما محمد بن على الباقر بن على بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه فيرى أن موت القلب من شهوات النفس، وحياة القلب في رفض شهوات النفس، وكلما رفض العبد شهواتها نال من الحياة، وأن السماع دليل على حياة القلوب، فهو للأحياء لا للأموات. قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[٤]، والأحياء هم الذين يحيون حياة روحية مترفعة عن الشهوات والأهواء، فالسماع في نظر الباقر دليل على حياة القلوب[٥].

(١٢) ويذهب ابن سينا إلى أن السماع رياضة عملية يستعين بها السالك على تهذيب نفسه وتطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة؛ لكي تجذب قوى التخيل والوهم إلى الإحساسات السامية وانفعالات الوجد والجذب والشوق مما يتناسب مع

---

(١) سورة الزمر آية ٢٣.

(٢) عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين للغزالي، ج٢، ص٢٢٢.

(٣) انظر شرح زكريا الانصاري للرسالة القشيرية على هامش الرسالة، ص١٥٠.

(٤) سورة الروم، آية ٥٢.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

حضرة الحق، وتنصرف عن الإحساسات والانفعالات الخارجية المحيطة التي تتصف بأنها توهمات مادية مناسبة للأمر السفلي، ويقول في ذلك: "ثم إنه (أي المريد) ليحتاج إلى الرياضة... وإلى تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة لتجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدس منصرفًا عن التوهمات المناسبة للأمر السفلي... ويعين على ذلك الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن به من الكلام موقع القبول من الأوهام"[١].

(١٣) وعرفه عبد الوهاب الشعراني بقوله: "اعلم السماع سر من أسرار الله تعالى يظهر في الصادقين من العشاق، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاق"[٢] وهو يفرق بين نوعين من السماع: سماع تقليدي. وسماع حقيقي.

والسماع التقليدي هو ما يفعله المتشبه ليلتحق بأرباب الأحوال والمواجيد، فمن تشبه بقوم فهو منهم.

أما السماع الحقيقي فهو ما قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣] وهذا السماع محكوم لأهله بالهداية وهو عنده ينقسم بدوره إلى:

سماع طبيعي. وسماع روحاني الهي.

والسماع الطبيعي هو ما يحدث بالأصوات الحسنة والنغمات الطيبة، وصاحبه يسمع بطبعه ونفسه وهواه فيكون حظه من مسموعه ما وافق طبعه، وهو لا يصلح إلا لمن كان قلبه صافيًا ونفسه قد تهذبت.

أما السماع الروحاني أو الإلهي فهو سماع الخاصة لكلمات الله تعالى وإدراكها وفهمها وتدبر معانيها والانفعال بها. وهو سماع مطلق لأصحاب الهمم العالية والنفوس الزكي والقلوب المستنيرة بنور الله.

---

(١) انظر الاشارات والتنبيهات، ج٤ من ص ٨٣٢٠ إلى ٨٢٤.

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعراني ولد سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٠م، وتوفي سنة ١٧٣هـ/ ١٥٦٥م وهو عالم من علماء الفقه والتصوف وله مصنفات عديدة في مختلف فروع العلم وهو مصري من محافظة المنوفية وله قبر في مسجده في باب الشعرية بالقاهرة.

(٣) سورة الزمر، الآيات ١٧- ١٨.

وهؤلاء لا تؤثر فيهم النغمات[١].

(١٤) هذا وقد عرف الإمام الغزالي السماع بقوله: "السماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق، فلا تصل نفس السامع إليه إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه"[٢] وهذا يعني: أن السماع هو اختبار صادق للقلب ليظهر ما بطن فيه، فإذا كان قلب السامع صافيًا عامرًا بحب الله أظهر السماع هذا الحب وألهب نار الشوق، وإذا كان قلبه مليئ بحب الدنيا ولذاتها وشهواتها أثار فيه السماع هذه اللذات والشهوات. وقال الغزالي أيضًا: "اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة من الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف"[٣].

ومعنى أن السماع أول الأمر هو أنه وسيلة عملية لرياضة النفس يصطنعها الصوفي في إحداث الوجد وهو في بداية الطريق إلى الله. فالسماع يثمر الوجد، وإذا تملك الوجد السامع فإنه قد يحرك أطرافه استجابة لهذا الانفعال الداخلي القوي، يتفق قول الغزالي هذا مع ما ذهب إليه علماء النفس من أن الإنسان وحدة جسمانية نفسية لا تتجزأ، وأن سلوكه ناحيتان: ناحية النشاط الحركي، وناحية النشاط الذهني، وهما متلازمتان في العادة[٤]، كذلك يتفق ما ذهب إليه الغزالي وغيره من الصوفية من أن السماع يحرك ما في القلب وأنه محك صادق يظهر ما كمن فيه مع ما توصل إليه علم النفس الحديث من أن المنبه الخارجي- وهو في تلك الحالة النغمات والأصوات- لا يفاجئ جسمًا جامدًا وإنما جسمًا حيًا يمتاز بالنشاط والإحساس، فالإنسان حتى عندما يكون غارقًا في نوم عميق ليس في حالة غيبوبة حسية تامة بل في حالة إحساس كامن.

ومن الخطأ أن يقال: إن المنبه الخارجي هو الذي يولد الإحساس، بل من الخطأ- إن أردنا توخي الدقة في التعبير- أن يقال: إن التنبيه يتحول إلى إحساس. كل ما في الأمر أن التنبيه الخارجي يحول الإحساس الكامن إلى إحساس فعلي واضح. فالمنبه

---

(١) الشعراني، رسالة كشف القناع عن وجه السماع مخطوطة ل ٢١٠ ظ

(٢) إحياء علوم الدين، ج٢ن ص١٢٦٦

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) انظر د.يوسف مراد.مبادئ علم النفس العام، ص٣٤.

الحسي هو مجرد منشط للطاقة الداخلية وللإحساس الكامن، ووظيفة الجهاز العصبي توجيه آثار هذا التطور وتركيزه.

وعلماء النفس يرون أنه يخيل إلينا أننا نحس بالأشياء وبالمنبهات، والواقع أننا نحس أنفسنا بفضل تأثير المنبهات الخارجية[1]، وعلي ذلك فإن النغمات وصوت المغني أو المسمع لا يخلق في المستمع مشاعر لم يكن لها وجود، وإنما هي فقط تثير مشاعر وأشجان كامنة في النفس فتحركها وتظهرها بشكل واضح وقوي.

ويمكننا بعد عرض التعريفات السالفة للسماع أن نستخلص ما تتضمنه من مفهوم السماع عند الصوفية فيما يلي:

(١) أن السماع عند الصوفية وسيلة عملية لإثارة الوجد والحب والشوق إلى الله الكامن في القلوب عن طريق سماع القرآن أو الألحان المغناة أو غيرها من الكلام حتى تنقدح في سرائر المحبين فتزداد خشوعًا وطلبًا للقرب.

(٢) أن السماع لا يخلق شيئًا جديدًا في القلوب، إنما هو منبه يثير المشاعر الكامنة فيه، فإن كان حبًا لله تواجد، وإن كان حبًا للشهوة ظهر وانكشف

(٣) أن للسماع آداب شرعية يجب الالتزام بها وإلا صار لهوًا وعبثًا.

(٤) أن من يسمع وهو صادق الحال يجني ثمرة الوجد والاتصال وقد تتحرك نتيجة لذلك أطرافه وقد يحدث أصواتًا وقد يسكن بلا حراك.

(٥) أن السماع سر من أسرار الله يعمل في القلوب عملها فيحييها ويحدد مشاعرها وينبهها فتتهيأ لتلقي المعرفة الذوقية.

---

(١) المرجع السابق، لمعرفة المزيد عن عملية التنبيه بالمؤثرات الخراجية وظاهرة الإحساس من ص ٦٧ إلى ٦٩.

(٣) العلاقة بين السماع والموسيقى العربية

هناك علاقة قديمة بين السماع وبين الموسيقى، فقد استخدم القدماء النغمات الموسيقية في بيوت العبادة والألحان المحزنة والمرققة للقلوب، والمُذَكِّرة للنفوس بعالمها. وكأن سماعها لتلك الموسيقى وترتيلها تلك الألحان يقربها ويشوقها إلى عالمها الروحاني.

وقد ذهب إخوان الصفا إلى أن الأشعار التي كان الحكماء الإلهيون يلحنونها عند استعمال الموسيقى في الهياكل وبيوت العبادات لترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الساهية من نومة الغفلة والأرواح اللاهية في رقدة الجهالة ولتشويقها إلى عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية ولإخراجها من عالم الكون والفساد ولتخليصها من الغرق في بحر الهيولي ونجاتها من أسر الطبيعة فكانوا يلحنون مع نغمات تلك الأوتار كلمات وأبيات موزونة وصف فيها نعيم عالم الأرواح ولذات أهله وسرورهم كما كان يقرأ المجاهدين المسلمين عند سماع نفير الحرب آيات من القرآن أنزلت في هذا المعني لترقق القلوب وتشوق النفوس إلى عالم الأرواح ونعيم الجنة مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ﴾[1]، ومثل هذه الآيات من القرآن الكريم.

كما ينشد المسلمون عند اللقاء ما قيل من أبيات الشعر في وصف الحور العين ونعيم الجنان مما يشوق النفس إلى هناك ويشجع على الإقدام[2].

وقد كان الغناء بذلك عنصرًا هامًا في ترقيق القلوب، وكان له أثر في التقاليد الدينية وكان من الأنبياء من يعتمد على جمال صوته في جذب الناس، فكان النبي داود عليه السلام إذا قرأ الزبور استمع إليه الإنس والجن والوحش والطير[3] وتستخدم الكنائس المسيحية حتى الآن الموسيقى والغناء الديني.

---

(١) سورة التوبة، آية ١١١.

(٢) انظر رسائل اخوان الصفا: رسالة في الموسيقى ج١، ص ١٥٤، ص١٥٥.

(٣) الطوسي، اللمع، ص ٢٦٨.

أما المسلمون فقد تغنوا بالقرآن منذ عهد الرسول (ص)[١] وتفردوا الصوفية دون الفقهاء باتخاذ السماع كوسيلة لترقيق القلب وتهذيب النفس وتهييج الشوق وإلهاب نار العشق لله تعالى والوصول إلى الوجد والاتصال الروحي بالله سبحانه وتعالى.

فالصوفية يتصورون أن الغناء يوجه النفس إلى الخير إذا كان ما بداخلها خير أو إلى الشر إذا كان ما بداخلها شر، فهو يثير كوامن النفس كما ذكرنا سالفًا، ولما كانت نفوس الصوفية وقلوبهم عامرة بحب الله خالية من حب الشهوات وكانت نفوسهم قد تخلصت من الأخلاق الذميمة وتحلت بالأخلاق الكريمة وتحققوا بالكمال الأخلاقي فإنهم عندما يسمعون فإنما يسمعون في الله ولله، ولذلك قيل: إن النفوس الناطقة إذا صفت عن الشهوات الجسمانية وزهدت في الملاذ الطبيعية وانجلت عنها الأصداء الهيولانية ترنمت بالألحان الحزينة وتذكرت عالمها الروحاني الشريف العالي وتشوقت نحوه، فإذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرضت النفس بزينة أشكالها ورونق أصباغها (أي: أن اللحن يرد على النفس فيثير ما تلونت به واصطبغت به من خصال حميدة أو ذميمة فيثيرها فيها) كي تردها إليها، فاحذروا من مكر الطبيعة أن تقعوا في شباكها[٢] فكل نفس إذا سمعت من الأوصاف ما يشاكل معشوقاتها ومن النغمات ما يلائم محبوباتها فرحت وسرت والتذت بحب ما تصورت من رسوم معشوقها واعتقدت محبوبها.

ويحكي أن رجل من أهل الوجد من الصوفية سمع قارئًا يقرأ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[٣] فاستعادها من القارئ مرارًا وجعل يقول: كم أقول لها ارجعي فليس ترجع، وتواجد وزعق وصعق صعقة فخرجت روحه[٤].

وقد مدح الصوفية الصوت الحسن واعتبروه مخاطبات وإشارات إلى الحق وسر من أسرار الله أودعه كل طيب وطيبة.

---

(١) يذهب د.زكي مبارك إلى أن هناك من يرى أن فواتح السور في القرآن الكريم ما هي الا علامات موسيقية وقد شرح هذا الرأي في كتابه النثر الفني، ج١ن ص٤١.

(٢) إخوان الصفا، رسالة في الموسيقى، ج١، ص١٧٩.

(٣) سورة الفجر، الآيات ٢٧-٢٨.

(٤) المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٠

ولا أدل على شغف الصوفية بالسماع وإقبالهم عليه باعتباره وسيلة لترقيق القلب وحفز الهمم وبعث الشوق وتقوية العزائم من أن كتبهم تفيض بالحديث عن السماع وآدابه ودرجات السامعين والوجد الذي يحدث للصوفية نتيجة للسماع وما يثمره في قلوبهم من معرفة ذوقية وما حوته تلك المصنفات من أشعارهم التي عبروا فيها عن مواجيدهم وأذواقهم وأشواقهم وحبهم لله وأحوالهم[١].

وقد اهتم الصوفية بعقد مجالس السماع التي يجتمعون فيها ويسمعون ما ينشده القوال من قصائد وألحان على نغمات الموسيقى يتغنى فيها بصوت خاشع بالأغاني والتوشيح الدينية التي تذكر السامعين بالجنة والنار وتزهدهم في الدنيا وتدعوهم للإقبال على الله والالتزام بأوامره ونواهيه وتذكر صفاته سبحانه وتعالى وتمتدح أخلاق الرسول وتدعوهم للاقتداء به.

أما طريقة التغني في مجالس الصوفية فقد بينها المرحوم الأستاذ الشيخ التفتازاني في قوله[٢]: إن الصوفية درجوا منذ القدم على أن يبدأوا مجالس الذكر بـ"لا إله إلا الله" وتعرف عندهم بالأرضية ويأخذ "الرسيم" الذي هو رئيس المجلس في التدرج بالذاكرين أثنائها من "الراست" وهو "الرصد" إلى "الدوكة" إلى "السيكاه" إلى "الجهركاه" أو "الجركاه" إلى "الحجاز" ثم "الرهاوي" "فالكردي" فالبياتي وهنا تبدو مقدرة الرئيس في نقل الذاكرين من نغمة إلى نغمة. كما تبدو مقدرة المنشدين في متابعتهم للأنغام والإنشاد.

والغالب في الإنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية مثل:

إلهـــي توســـلنا بجـــاه محمـــد نبيـــك وهـــو الســـيد المتواضـــع

---

(١) نظم الصوفية قصائد عديدة فنظموا في الحب ومناجاة الله واغراض عديدة تصور وجدانهم واحوالهم كرابعة العدوية وابن الفارض والشبلي والحلاج وأبو الحسن بن الصياغ وغيرهم من الصوفية. انظر د.زكي مبارك – التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق في حديثه عن المنظومات الصوفية، ص٢٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر مجلة المعرفة، يونيه سنة ١٩٣١، أو د.زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الآداب والاخلاق، ص٢٦٧ وما بعدها.

انلنـا مـع الأحبـاب رؤيتـك التـي إليهـــا قلـــوب الأوليـــاء تســـارع

... الخ ثم ينفرد الرئيس بعد الوصول إلى نغمة الرصد التي ينتهي عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة فيقول: (اغثنا أدركنا يا رسول الله). ثم يقول الموال من نفس النغمة، فالأبيات التي ينشدها عند قيام المجلس من نفس النغمة أيضًا ينشدها على الأرض مقطعة، وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية[١].

وكثيرًا من الأغاني الصوفية يستخدم فيها الرمز وفيها ما يفصح عن أغراضهم، ومنهم من يتواجد على سماع أشعار تحمل معاني الغزل والهجر والوصال ويسقطها على معاني في نفسه باطنة تختلف تمامًا عن معانيها الظاهرة. فالصوفي الحق يجد الله في كل ما يسمع، والصوفية في حال وجدهم يتمثلون بالأشعار والكلمات فينقلونها من الأغراض الحسية إلى الأغراض الروحية.

وقد كان للصوفية الفضل الكبير على الشعر والموسيقى والغناء، وقد تركوا الآثار الباقية التي تشهد بذلك والتي كان لها قيمة فنية وأدبية عظيمة. والصوفي إنسان رقيق المشاعر جياش العواطف طاهر الروح نقي القلب يتمتع بالشفافية الروحية والحس المرهف، فقد يثير وجدانه وعواطفه أصوات عادية لا يلتفت إليها الإنسان العادي، ونذكر من ذلك ما وقع لأبي الحسن بن الصباغ الصوفي وقد مر وقت الضحى ببساتين قوص فسمع حمامة على شجرة تغرد بصوت شجي فاستمع ثم بكي ثم تواجد وأنشد قصيدة ثم بكى طويلا[٢].

ويرى د. زكي مبارك أنه ليس من المبالغة أن نحكم بأن الصوفية تفردوا بين أهل الأدب والأخلاق بالتجويد في الموسيقى والغناء فهم الذين نظروا في ذلك نظرًا فلسفيًا، وهو الذين جعلوا الموسيقى والغناء من المشاكل الخلقية، وهم الذين صيروا إنشاد الشعر في المحافل العلنية بابًا من الأدب الرفيع[٣].

---

(١) انظر. مقالة المرحوم الشيخ التغتازاني في مجلة المعرفة عدد يونيه ١٩٣١، وانظر ايضا، كتاب د.زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الآداب والاخلاق، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) انظر. مقالة المرحوم الشيخ التفتازاني في مجلة المعرفة عدد يونيه ١٩٣١، وانظر أيضًا كتاب . زكي مبارك، التصوف في الآداب والأخلاق، ص٢٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

والصوفية هم الذين سمعوا من النفس حديثها ومناجاتها، وسمعوا من القلب المعارف الذوقية والعلوم الكشفية.

وأصحاب الطرق الصوفية في مصر لا يزالون حتى يومنا هذا يعقدون مجالس الذكر والسماع، وقد يستبيح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجالس الذكر، ولكن هذه الطريقة قاهرية محضة "أي: في القاهرة" ويكاد لا يتبعها إلا رجال الطريقة "الليثية" أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذته ومبرزيه وحملة ألوتيه في القاهرة منذ أكثر من مائتي عام(١).

ويذهب د. زكي مبارك إلى أن الصوفية أقبلوا على الغناء ولم يشترطوا إلا حسن النية وشرف القصد، وتغردت الطريقة "المولوية" باستجازة العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجالس الذكر، وكان لهذه الطريقة أشياع في الأقطار الفارسية والتركية، وكان لهم في مصر تكية في حي السيوفية بالقاهرة وكان لهم حضرة إسبوعية يتشرف إليها المولعون بالموسيقا والغناء. وقد أغلقت الحكومة تلك التكية. ويضيف الدكتور زكي مبارك قوله: ورأينا يوم إغلاقها جماعة من أهل الأدب يعترضون في الجرائد على حرمان الموسيقا من براعة أولئك القوم(٢).

وقد تبينت أن الصوفية الذين أجازوا السماع وأباحوه كوسيلة لاصطناع الوجد وترقيق القلب من خلال مصنفاتهم أنهم مجمعون على كراهة اللهو في السماع وادعاء الوجد وإتيان الحركات المصطنعة والعبث أثناء السماع وأنهم يضعون للسماع الشروط التي يجب الالتزام بها والتي تكفل له الجدية وتبعده عن اللهو والعبث.

بيد أن بعض مجالس الطرق الصوفية الآن لا تلتزم كثيرًا بتلك الشروط التي وضعها أسلافهم من الصوفية، ويبدو هذا من ملاحظة أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحيانًا إلى مجالس فنية، فهي تعقد ظاهرًا لذكر الله، ولكن الغرض منها الغناء.

---

(١) انظر، مقالة المرحوم الأستاذ الشيخ التفتازاني بمجلة المعرفة عدد يونيه ١٩٣١، وانظرا أيضًا د. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، ص٢٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٦، ص ٢٦٧.

ويذهب د. زكي مبارك أنه كان في حي الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلاثاء، وكان ذكر الله في الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة (عجزة الدراويش) أما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحي، وكان منشدًا حلو الصوت عذب الأداء وكان ينشد في الحضرة أبياتًا من شعر ابن الفارض مثل:

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

ثم يندفع فيغني "أنست يا نور الوجود، شرفت يا روح المهجة بعد البعاد أنا قلبي عليك" أو "الكمال في العلاج صدف" إلى آخر الأغاني الطريفة التي كانت تغنى في الليالي الملاح.

ثم يضيف د. زكي مبارك أنه كان يلاحظ أن أهل هذا المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة قصف، فيجمعون خلانهم حول الموائد ويتندرون بأطيب الأحاديث، وكان المستمعون يقترحون "الأدوار" على نحو ما كانوا يفعلون في حفلات الطرب والأنس. وقد اقترح بعضهم دور "حود من هنا وتعالي عندنا" فغضب الشيخ الحويحي وقال: نحن لسنا في الأزبكية.[١]

وكان د. زكي يرى من شواهد الحال أن الأزبكية ليست عنهم ببعيد.[٢]

وإذا كنا أسلفنا أن الصوفية ينقلون المعاني الحسية إلى المعاني الروحية وأنهم لا يحملون الألفاظ التي يسمعونها على معناها الظاهر وإنما يسقوطنها على معاني روحية باطنة في نفوسهم، فهذا لا يعني أن يعقد الصوفية مجالس لمثل هذه النوعية من الغناء، فهي على الأقل تبدو في ظاهر الأمر مجالس للأنس واللهو وليس لذكر الله. ومن المؤكد أن مجالس الصوفية ليست كلها على هذا الحال، فهناك مجالس تعقد للسماع يتلي فيها القرآن الكريم بالألحان أو القراءات المشروعة أو تنشد فيها القصائد الدينية.

---

(١) كانت تقيم المرحومة السيدة/ أم كلثوم سيدة الغناء العربي حفلات غنائية شهرية على مسرح حديقة الأزبكية يتوافد إليها محبي الطرب من كل مكان.

(٢) د.زكي مبارك- التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ص ٢٦٩، ٢٧٠.

ويقال: إن مجالس الذكر والسماع كانت مدرسة لتخريج المغنيين؛ ففيها ظهرت تباشير النبوغ لبعض المطربين مثل عبده الحمولي ومحمد عثمان وسلامة حجازي والمنيلاوي وسيد درويش، وهم رواد الغناء والموسيقى في مصر في ذلك الوقت، وإن القري المصرية بها مئات من قراء الموالد وهم في الأصل من أتباع الصوفية[1].

والحق أني أشك في أن يكون قراء الموالد في القري المصرية من أتباع الصوفية، فما يحدث في تلك الموالد بعيد كل البعد عن الدين عمومًا وعن التصوف خصوصًا. ولقد سمعت ورأيت ما يحدث ويقال في تلك الموالد من غناء إن لم يكن يسيء إلى الدين فهو لا يحسن اليه. فمن لا يعرف الكثير عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى قد يخطئ الظن ويعتقد أن مثل تلك الأعمال والأقوال من الدين في شيء نهيك عما يحدث في احتفالات المولد النبوي في هذا الشأن في القري المصرية.

إن ما يحدث في تلك الموالد لا يفي بالغرض الذي اصطنع الصوفية من أجله السماع كرياضة عملية تذكرهم بأمور الآخرة وتزهدهم في الدنيا وتقربهم إلى الله وترغبهم في الطاعات وصالح الأعمال وحميد الخصال وتهذب النفوس وتجلي قلوبهم لتقبل الفيوضات الإلهية والمعارف الذوقية. فقد ناء بها أصحابها من السماع الصوفي شكلاً وموضوعًا ولم يلتزموا فيها بآدابه التي جعلها الصوفية حصنًا يحمي السماع من العبث واللهو.

هذا وقد حاول الصوفية تعليل أثر السماع في وجدان السامع ليوضحوا لماذا تنفعل النفس بسماع الألحان وتطرب لها، وهذا ما سنبينه معًا في عرض جانب من محاولات الصوفية في هذا الصدد.

---

(١) د.زكي مبارك- التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ص ٢٧٠.

(٤) علة طرب الأرواح بالغناء والنغمات العذبة:

تطرب النفس لسماع النغمات العذبة والألحان الشجية والعبارات البليغة المغناة يستوي في ذلك الكبار والصغار[١] من الجنسين، بل إن الحيوانات أيضًا تطرب لسماع الألحان الجميلة كما سبق أن أوضحنا، وكلما كان الإنسان مرهف الإحساس رقيق العواطف كلما كان تأثره أقوى[٢]، فلا عجب أن يتأثر الصوفي أكثر من غيره بالسماع لاسيما أنه يجد الله في كل ما يسمع، حتى وإن كان ما يسمعه جملة عادية يتفوه بها إنسان، فإنها تجد لها وقعًا في نفسه، ولذلك قال أبو عثمان المغربي: "من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح. فهو فقير مدع"[٣] ويقول الغزالي: "إن قرعت أسماعهم (أي: الصوفية) نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج. لم يكن انزعاجهم إلا إليه، ولا طربهم إلا به، ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه ولا

---

(١) أكدت الأبحاث العلمية التي قامت بها الجمعية العلمية الملكية بانجلترا ان الجنين يطرب لصوت امه وهو لا يزال في بطنها وإذا انطربت الأم لسماع غناء فإن هذا ينعكس عليه وذلك لا سماع الام للغناء ينعكس عليها في صورة توازن هرموني كيمايائي مما سؤثر بدوره على الجنين فيطرب. والطرب هو احساس عميق بالسعادة والنشوة قد يبدو في صورة حركية كأن يميل برأسه وجسمه وهذا نراه عند الأطفال حين يطربون. جاء هذا الرأي في دراسة نفسية حول طرب الجنين لصوت امه زنشر بجريدة الأهرام العدد ٣٦٦٥٦ الصادر يوم ١٩٨٧/٤/١٩م

(٢) لاحظ القدماء منذ عهد الغيثاغوريين في القرن السادس ق.م الصلة بين الموسيقى والغناء والنفس البشرية فكانوا يتخذون منها أنواع للعلاج واخري للهو والطرب وثالثة للحماسة والحرب ورابعة للايقاع والرقص وتكلم عنها افلاطون في "الجمهورية" وارسطو في طتاب الشعر وتكلم كل منهما على ما يحسن منها ويجب تعليمه. وما يقبح ويجب اسبعاده- كما استخدم الكندي الموسيقى العربية في العلاج وكان يستخدم أنواع خاصة من العزف يستيقظ المريض من غشيته وقد حكي في كتابه "المصوتات الوترية" تأثير الموسيقى على الحيوان والانسان وصنف النغمات المؤثرة إلى ثلاثة ألحان الطوبي وهو يلائم اللهو والالتذاذ. والاقدامي وهو يناسب الشجاعة والنجدة والاقدام. الشجوي ويناسب البكا والحزن انظر مزيد من التفاصيل في كتاب د.احمد فؤاد الأهواني ص ١٦١. الكندي فيلسوف العرب وكتاب الكندي (المصوتات الوترية).

(٣) القشيري. الرسالة، ج٢، ص٦٥٥.

شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له، ولا ترددهم إلا حواليه. فمنه سماعهم وإليه استماعهم فقد أقفلوا عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته"[١].

والإنسان المؤمن يجد عظمة صنع الله وإبداعه في كل ما يرى من الأشياء الجميلة وكل ما يسمع من الأصوات الرخيمة ولحضوره مع الله دائمًا يتأثر إدراكه الحسي بذلك الحضور، ولا شك أن الحالة النفسية للسامع المؤمن تؤثر في إدراكه الحسي لما يسمع من الأصوات[٢] أو كما قال "السهروردي":

" فللكمال جمال لا يدرك بالحواس ولا يستنبط بالقياس. وفي مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلي الصفات. ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع. والأولون منحوا قسطا من تجلي الذات فكان وجدهم على قدر الوجود وسمعاهم على حد الشهود"[٣].

ويقول "الغزالي" في ذلك ما نصه: "سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه. ومستخرج منه أهوالاً من المكاشفات والملاحظات لا يحيط الوصف بها"[٤]

والتأثر بالسماع مجبول في فطرة الإنسان والحيوان، فلله سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى أنها تؤثر فيها تأثيرًا عجيبًا حتى أنه قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج، فالطفل في مهده والجمل على

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٣٧.

(٢) لا أدل على ذلك مما روي عن الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع صوت ناقوس فقال لأصحابه: "أتدرون ما يقول هذا؟ "قالوا: لا، قال: "إنه يقول: سبحان الله حقا حقا، إن المولى صمد يبقى. وما روي عن عبد الرحمن السلمي انه دخل على عثمان المغربي وكان رجل يستقي الماء من بئر على بكره فقال: "أتدري ما تقول "قال: لا. فقال: تقول: "الله- الله" انظر القشيري، الرسالة ج٢، ص ٦٥٥.

(٣) السهروردي. عوارف المعارف على هامش الإحياء للغزالي ج٢، ص٢٤٩.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٧٧.

بلادة حسه يتأثر بالنغمات ويطرب لها دون أن يعيها أو يفهم لها معني ويكون ذلك دون سابق تعلم أو اكتساب، وهنا يبدو سؤالاً هامًا: لماذا تثير تلك النغمات والأصوات غير المفهومة انفعالات سامعيها على الرغم من عدم إدراكهم لمفهومها؟ ويقول الغزالي: "المعاني المفهومة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم، وأما الأوتار وسائر النغمات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيرًا عجيبًا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الأوتار وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين أو ما شابه ذلك ليس يدري إلى ماذا يشتاق ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضي أمرًا ليس يدرى ما هو حتى يقع ذلك للعوام"[١].

ويحاول الغزالي تعليل السبب الذي يجعل السامع ينفعل بالأنغام فتجعله في حالة شوق. والشوق في رأيه يكون له ركنان:

الركن الأول: صفة المشتاق وهو نوع المناسبة مع المشتاق إليه.

والركن الثاني: معرفة المشتاق إليه، ومعرفة صورة الوصول إليه.

فإن وجدت الصفة التي بها الشوق. ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرًا. وإن لم يوجد العلم بالمشتاق إليه وجدت الصفة المشوقة، وحركت القلب الصفة واشتعلت نارها أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة[٢].

ومعني ذلك: أن الشوق يكون بين المشتاق والمشتاق إليه؛ فإذا عرف المشتاق المشتاق إليه كان الأمر واضحًا لا غموض فيه. أما إذا وجد المشتاق ووجد الشوق وحرك قلبه غير أنه لا يعرف إلى ماذا يشتاق فإن ذلك يؤدي إلى الدهشة والحيرة، وذلك كمثل من يسمع الألحان فيجد روحه مأخوذة بها ويغلب عليها شوق جارف إلا أنه لا يعرف إلى من هذا الشوق. فالإنسان لا يدري أن بين روحه وبين العالم الأعلى واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهي والفراديس العُلا نوع من المناسبة والصلة، غير أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الأسماء والصفات، فالسماع يحرك فيه الشوق إليها بينما

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

جهله المفرط واشتغاله بالدنيا وانغماسه في الأمور المادية جعله ينسي نفسه وينسي ربه وينسي مستقره الذي يشتاق إليه ويحن له بالطبع والفطرة فيشعر عند سماع النغمات بمشاعر لا يدري سببها فيندهش لذلك ويتحير ويطرب ويكون في حال لا يدرك حقيقتها ولا يمكن التعبير عنها. ويقول الغزالي في ذلك: "فكذلك في نفس الآدمي مناسبة مع العالم الأعلي وللذات التي وعد بها في سدرة المنتهي والفراديس العُلا إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء... فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع فيتقاضاه قلبه، أمر ليس يدري ما هو، فيندهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمخنوق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن للمتصف بها أن يعبر عنها"(١).

هذا هو تفسير الغزالي لسبب الوجد الذي تحدثه الألحان والأصوات الحسنة في القلب. وهناك رأي آخر يقترب من رأي الغزالي يحاول تعليل هذا الأمر للسهروردي إذ يقول: "مثار الوجد الروح أو الروحاني في حق المحق والمبطل، ويكون الوجد تارة من فهم المعاني يظهر، وتارة من مجرد النغمات والألحان، فما كان من قبيل المعاني تشارك النفس الروح في السماع في حق المبطل ويشارك القلب في حق المحق. وما كان من قبيل مجرد النغمات تتجرد الروح للسماع. ولكن في حق المبطل تسترق النفس السمع. وفي حق المحق يسترق القلب السمع"(٢).

وعنده أن سبب استلذاذ الروح للنغمات أن العالم الروحاني هو مجمع الحسن والجمال، وأن التناسب والتناسق الموجود في الأكوان بين الموجودات تناسبًا وتناسقًا محبوب ومستحسن، وقد خلق الله الألوان والأشكال والصور والأصوات وجعلها جميعًا متعة للروح، فمتي سمع الروح النغمات اللذيذة والألحان المنسجمة المتناسقة تأثر بها لأن الروح تتوق إليها بطبيعتها، ويقول في ذلك: "وجه استلذاذ الروح للنغمات العالم الروحاني مجمع الحسن والجمال ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قولاً

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص ٢٩٢.

(٢) عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين للغزالي، ج٢، ص ٢٦٦.

وفعلاً ووجود التناسب في الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتي سمع النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر بها لوجود الجنسية"[١] أي: أن الروح لها بطبيعتها حب للجمال وشوق إليه وإلي النغمات المنسجمة ولذلك تطرب عند سماعها.

ويحاول السهروردي تعليل طرب الروح عند سماع النغمات بطريقة أخرى فيقول: "إنما تستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيمان الخفي إشارة ورمزًا بين المتعاشقين. وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلي ينزع ذلك إلى إنوثة النفس وذكورة الروح. والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٢] وفي قوله سبحانه: "منها" إشعار بتلازم وتلاصق موجب للإتلاف والتعاشق. والنغمات يستلذها الروح لأنها مناجاة بين المتعاشقين وكما أن في عالم الحكمة كونت حواء من آدم ففي عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحاني، فإذا استلذ الروح النغمات وجدت النفس "أي: صارت في حالة وجد" المعلولة بالهوي وتحركت بما فيها"[٣] ويوضح السهروردي في هذا النص أن الروح وهي مذكر تنطق مع النفس وهي مؤنثة بالإيمان الخفي وهما متحابان ومتعاشقان والروح يستلذ النغمات ويطرب لسماعها لأنها منجاة بين المتعاشقين وإذا استلذت الروح النغمات طربت النفس لها وشعرت بالوجد وانفعلت بانفعال الروح.

وقد سُئِلَ الجنيد: ما بال الإنسان يكون هادئًا فإذا أسمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[٤] استغرقت عذوبة سماع الكلام الأرواح. فلما سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك"[٥] أي: أن أرواح بني آدم خاطبها الله سبحانه وتعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فانطربت الأرواح لسماع كلام الله، ولذلك فإنها عند سماعها الأنغام والألحان تتذكر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٨٩.

(٣) عوارف المعارف بهامش الإحياء، ج٢، ص ٢٦٧.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٧٢.

(٥) القشيري، ج٢، ص ٦٤٣.

ذلك فيحركها. ويتفق ما ذهب إليه "الجنيد" مع ما قاله "أبو محمد رويم" في تعليل طرب الصوفية للسماع، واستجابة أرواحهم له، وتواجدهم عليه إذا قال ما نصه: ان القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم (أي الحق سبحانه وتعالى) بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فكمن ذلك في إسرارهم، كما كمن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا كوامن أسرارهم فانزعجوا، كما ظهرت كوامن عقولهم عند اخبار الحق لهم ذلك فصدقوا(١).

تلك محاولات من جانب الصوفية لتعليل الطرب والانفعالات النفسية والوجد الذي يستشعره السامع في نفسه عند سماعه للألحان والأقوال المنظومة وجميعها كما هو واضح اجتهادات غير مؤكدة والأجدر بنا أن نسلم مع من يرى منهم أن ذلك سر من الأسرار الإلهية، قد يعجز الإنسان عن تعليله.

وقد حاول الفلاسفة والحكماء أيضًا تعليل تأثر الكائنات الحية بالموسيقي فقالوا: إن أصوات الموسيقى ونغماتها وإن كانت بسيطة ليس لها حروف معجم، فإنه النفوس إليها أشد ميلا، ولها أسرع قبولا لمشاكله ما بينهما، وذلك أن النفوس أيضًا جواهر بسيطة روحانية، غير مركبة، ونغمات الموسيقى كذلك، والأشياء إلى أشكالها أميل(٢).

وقالوا أيضًا: إن الباري جل ثناؤه لما ربط للنفوس الجزئية بالأجساد الحيوانية، ركب في جبلتها الشهوات الحسية، ومكنها من تناول اللذات الجرمانية في أيام الصبا ثم سلبها عنها في أيام الشيخوخة وزهدها فيها كيما يدلها على الملاذ، والسرور، والنعم التي في عالمها الروحاني ويرغبها فيها، فإذا سمعتم نغماته الموسيقي، فتأملوا اشاراتها نحو عالم النفوس.(٣)

وقالوا كذلك: إن النفوس الناطقة إذا صفت عن الشهوات الجسمانية، وزهدت في الملاذ الطبيعية، وانجلت عنها الأصدية الهيولانية، ترنمت بالألحان الحزينة وتذكرت

---

(١) الكلبازي: التعرف لمذهب أهل التصوف. تحقيق د. عبد الحليم محمود طه عبد الباقي سرور.

(٢) إخوان الصفا – الرسالة الخانسة في الموسيقى ص ١٧٦.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

عالمها الروحاني الشريف العالي، وتشوفت نحوه، فإذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرضت للنفس بزينة اشكالها ورونق اصباغها كيما تردها اليها[١].

وغير ذلك من أقوال الحكماء محاولين تحليل أو تعليل هذه الظاهرة.

وإذا حاولنا أن تقف على تحليل العلم لهذه الظاهرة فإننا نجد بيشا[٢] قد عرف الحياة عموما بانها مجموعة من الوظائف التي تقاوم الموت. معني هذا ان ما يميز الكائن الحي هو النزوع، ويتجلى هذا النزوع في قابلية الكائن الحي للتهيج والتنبيه لمواجهة المهيج أو المنبه والرد عليه.

وإن هذه القابلية موجودة في أدني الكائنات الحية في جسم الحيوان كله. ثم أخذت تتمايز وتنحصر في مناطق معينة، وذلك بترقي الجهاز العصبي في السلسلة الحيوانية فتكونت آلاتها الخاصة، وهي النسيج العضلي والأعصاب الخاصة بالحركة، والمشرفة على ردود الفعل العضلية، من انقباض وانبساط، وما يترتب عليها من اوضاع واتزان وتوجيه. إذن فالتهيجية هي منشأ الانقباضية contractility.

وإلى جانب خاصية الانقباض نشأة خاصية التنبيه وكانت هي أيضًا في بادئ الأمر غير متميزة شائعة على سطح الجسم بشكل حالة التماس، ثم أخذت تتمايز وتتخصص فتكونت آلالتها الخاصة، وهي أعصاب الحس وسائر الحواس التي تنتهي عند نهاية أطراف هذه الأعصاب، وأن الحس والحركة مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. ويمر التنبيه الحسي بعدة مراحل قبل أن يتحول إلى حركة[٣].

---

(١) اخوان الصفا، الرسالة الخامسة في الموسيقي، ص ١٧٦.

(٢) بيشا، عالم فسيولوجي ومشرح فرنسي ولد سنة ١٧٧١ وتوفي نسة ١٨٠٢ عن احدي وثلاثين سنة وله كتاب "التشريح العام" وكتاب البحوث الفسيولوجية في الحياة والموت انظر د. يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، ص٥٣.

(٣) انظر د. يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، ص ٥٥ إلى ص ٦٨ لمعرفة مزيد من التفاصيل العلمية.

ولن أطيل الحديث في التفاصيل، وإنما أكتفي بالإشارة إلى المراحل الثلاث التي تتم فيها دراسة الإحساس أو تأثر السامع بصفة خاصة بما يسمعه من الموسيقى والغناء. وهذه المراحل هي:

(١) مرحلة الشروط الفيزيائية:

لا يؤثر المنبه الحسي (الموسيقى والغناء) إلا إذا مس العضو الحاس (الأذن بأجزائها المختلفة) ويكون هذا التماس في حالة السمع غير مباشر.

(٢) مرحلة الشروط الفسيولوجية:

وهي تنقسم إلى ثلاث مراحل وهي:

(أ) انفعال العضو الحاس (الاذن) واستقبالها للانغام والألحان وهي ما يسمي بالتنبيهات وتركيزها ثم تحليلها وتفهم معاني المسموع.

(ب) توصيل التنبيه بواسطة العصب المورد، وتختلف مدة انتقال التنبيه باختلاف الأعصاب وما يعترض طريقها من تسهيلات أو عقبات فسيولوجية. وهذا يعني ان هناك فروق فردية في الاستجابة للسماع بالنسبة للمستمعين من الناحية الفسيولوجية.

(ت) إن الإحساس أو ادراك المحسوس أو المسموع من الألحان والنغمات وغيرها من الأصوات لا يتم الا في المراكز العصبية.

(٣) المرحلة النفسية:

وهي مصاحبة لانفعال المركز العصبي. وهي التأثير النفسي الذي يحدثه المنبه الخارجي وهو السماع. أو هي بمثابة تحول التنبيه إلى احساس نفسي. وكما القول ان المنبه الخارجي أو السماع لا يخلق احاسيس جديدة في نفس السامع وإنما هو فقط يثير الاحاسيس الكامنة[١]

ننتهي من ذلك إلى ان النفس تطرب لسماع الألحان لان الإنسان كائن حي قابل للتهيج والتنبيه. ما دامت تتوفر فيه الشروط الفيزيائية والنفسية والفسيولوجية اللازمة. فإذا توفرت في السامع ووجد المنبه وهو السماع أو الموسيقى والغناء والألحان الجميلة حدث الطرب والانفعال والوجد.

---

(١) انظر د. يوسف مراد. مبادئ علم النفس العام، ص ٦٨،٦٧

وهكذا نجد تحليل علماء النفس لظاهرة انفعال السامع السامع بما يسمع وهي تصف ما يحدث للكائن الحي عند السماع أو ما يحدث يسمع وهي تصف ما يحدث للكائن الحي عند السماع أو ما يحدث في عملية السمع وليس تعليلاً وتوضيحًا لأسباب هذا الانفعال. ومن هنا يمكن القول أن الإنسان وغيره من الكائنات الحية تنفعل بالسماع انفعالات مختلفة وبدرجات متفاوتة

وتطرب به ولا خلاف على ذلك وإنما معرفة علة هذا الطرب فهي سر من أسرار الله وقد ذكرنا محاولات الصوفية والحكماء والعلماء لتعليل ذلك.

أما اختلاف درجات السامعين وتفاوت انفعالاتهم بالسماع فذلك ما سنتبينه عند تناول درجات السامعين ومقامتهم.

(٥) مقامات السامعين في الفهم والوجد:

عرفنا أن الصوفية يطعنون السماع للوصول إلى حالة من الاستعداد النفسي يشعر الإنسان لحظتها أن قلبه معلق بالله وأن روحه تميل إلى الاتصال به تعالى وأنه بكل كيانه وجميع جوانبه ينجذب بحب وشوق إلى الحضرة الإلهية فيقشعر بدنه ويهتز لغلة الشوق عليه وقد تصدر عنه صيحة أو تفيض عينيه بالدموع ويغمر قلبه الوجد وتهيم روحه في عالم الملكوت فيغني عما حوله ويغني عن نفسه ويبقي بالله.

فالسماع وسيلة لاستحضار الوجد والبقاء في حالة نفسية خاصة تهيمن على السامع بحسب حاله الخاص ودرجته ومقامه.

إذن حقيقة السماع هي تنبيه القلب على حقيقة المسموع وفي ذلك يقول الغزالي ما نصه: "فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجوهر، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر واختفيت كما أخفى الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل إلى استثارت خفاياها الا بقوادح السماع ولا منفذ للقلوب إلا من دهاليز الأسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها، وتظهر محاسنها أو مساويها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه كما لا يرشح الاناء الا بما فيه ... فالسماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق فلا تصل نفس السالك إليه الا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه[١]

ولما كان السماع يظهر خفايا القلوب وإسرارها – كما اتضح لنا – وكانت تلك الخفايا تختلف من قلب إلى اخر اختلفت درجات السماع تبعا لذلك وتباينت مقامات السامعين وللمستمع عامة أربعة أحوال هي:

(١) مستمع يستلذ بالنغمات والأصوات بمجرد الطبع دون فهم المسموع، وهذا مباح وان كان يعد من اخس مراتب السماع لان تلك الدرجة من السماع يشاركه فيه الحيوانات التي تطرب لسماع الأصوات العذبة والنغمات الموزونة دون ان تفهم ما يقال وهذا السماع من اللهو المباح لا ضرر فيه.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ٢٦٦.

(٢) مستمع يستلذ ما يسمع ويفهم معاني الكلمات غير انه ينزله على ما تقتصيه شهواته واحواله وهذا النوع من السماع اقل درجة من سابقه لا صاحبه يسقط ما يسمع على ما حرم عليه مما يثير شهواته وهذا هو سماع الشبان أو الشابات الذين ينزلون ما يسمعون على من لا يحل لهم فيثيروا بذلك ما يكمن في نفوسهم من الشهوة وهو محرم لأنه قد يؤدي إلى الوقوع في العصية.

(٣) مستمع يستلذ النغمة ويفهم العبارات وينزل ما يفهم على احواله في معاملاته مع الله تعالى فمثلا إذا سمع شيئًا من العتاب أو القبول أو الهجر أو الوصل أو القرب أو البعد أو غيرها فإنه ينزله على أحواله مع الله وهذا ما يسميه الصوفية "سماع بالحال" ويسمي صاحبه سامع بحاله.

(٤) مستمع بربه وهو يسمع في حال الغناء من الله وهو اعلي درجات السماع والوجد وصاحبه لا ينزل ما يسمع على أحوال نفسه وإنما يكون غافلا عن نفسه واحوالها وغافلا عما يقال وباقيا بالله يأخذ عنه ما يفيضه على قليه من المعرفة الذوقية.

(٥) وقد جعل الغزال أول درجات السماع فهم المسموع وتنزله على معني يقع للمستمع ثم يثمر الفهم الوجد ويثمر الوجد الحركة بالجوارح وسنتبين ذلك بشيء من التفصيل.

(١) الفهم:

ويقصد به فهم معاني المسموع وإدراك المستمع له والفهم له الأهمية الأولى في اثمار السماع وهو يختلف باختلاف أحوال السامعين النفسية ودرجة قربهم من الله ويرى إمامنا ان للسامع أحوال اربعة تؤثر على مدي إدراكه العقلي لما يسمع وهي:

- أن يكون السماع بمجرد الطبع.
- أن يفهم معاني المسموع وينزله على صورة انسان.
- وإما أن تنزل السامع ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله.
- سماع من جاور الأحوال والمقامات وفني عن نفسه وبقي بالله.
- وسنتحدث عن كل حال من هذه الأحوال كما تبيناها عند الغزالي.

(١) سماع بمجرد الطبع بحيث الطبع بحيث ان السامع لا يكون له حظ في السماع إلا أن يطرب للألحان ويتلذذ بالأنغام ويستمتع بالأصوات الحسنة. وهذا السماع وان كان مباح لا حرمة فيه الا انه اقل درجات السماع لان المستمع في هذه المرتبة يتساوى مع الحيوانات التي تطرب لسماع النغمات وتستلذها دون أن تتأثر بمعانيها وتدرك مراميها ويقول الغزالي في ذلك: سماع بمجرد الطبع اي لا حظ له في السماع الا استلذاذ الألحان والنغمات وهذا مباح وهو اخس رتب السماع اذ الابل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعي هذا الذوق الا الحياة فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة[1].

ومثال ذلك النوع من المستمعين كمن يسمع أغنيات بلغات أجنبية لا يعرفها ويطرب لسماعها.

(٢) وإما أن يكون السامع فاهمًا لمعاني المسموع ولكنه ينزل ما يسمع على صورة إنسان أي يتخيل أثناء سماعه وتفهمه لمعاني المسموع صورة إنسان وينزل ما يفهم من معاني عليه سواء كان هذا الإنسان معروفًا له أو غير معروف.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص ٢٨٥.

وهذا السماع يكون للشباب الواقع تحت تأثير الشهوات وهم ينزلون ما يسمعون على حسب شهواتهم وأغراضهم ويرى إمامنا أن هذه الحالة أخس من أن يتكلم فيها الا ببيان خستها والنهي عنها[١].

(٣) وإما أن ينزل السامع ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة وفي التعذر مرة أخرى فيكون هذا سماع المريدين المبتدئين فإنه للمريد مقصودًا هو معرفة الله تعالى والتقرب اليه. ولتحقيق هذه الغاية السامية يسلك طريق المجاهدات والرياضات العملية والروحية.

ويتحقق بمقامات الصوفية وأحوالهم. فإذا سمع الغناء الذي يتحدث عن الشوق، أو الوحشة، أو الأنس أو الوفاء، أو القرب أو البعد، أو قرب الوصال، أو غير ذلك مما تصفه الأشعار من الأحوال التي تجد لها صدا قويا في نفسه وتبعث فيه الشوق والوجد وتكون كالقدح الذي يشعل نيران قلبه وتجعله يشعر بأحوال مخالفة لأحواله العادية وهذا المقام من السماع يسمي " السماع بالحال".

ويذهب الغزالي إلى ان المريد في سماعه للقصائد أي كانت عباراتها ينزل الألفاظ على أحواله بصرف النظر عن مراد الشاعر من هذه الألفاظ فهو يفهم معاني هذه الأقوال حسب أحواله الخاصة التي تكون نخالفة لما لها من مفاهيم ظاهرة فإذا سمع أبيات فيها ذكر الخد والفم والصدغ فإنه لا يدرك منها معانيها الظاهرة بل يفهم منها معاني خاصة تتفق وأحواله التي يستشعرها في لحظة السماع ويضرب الغزالي أمثلة على ذلك بقوله: حكي أن بعضهم سمع قائلا يقول:

قال الرسول غدا نزور فقلت تعقل ما يقول

فاستنفذه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة فلما افاق سئل عن سبب وجده مم كان؟ فقال: تذكرت قول رسول الله صلي الله عليه وسلم: إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل جمعة مرة[٢]

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر الإحياء، ج٢، ص٢٨٥ – وانظر حديث إن أهل الجنة يزورون ربهم كل جمعه، ورواه الترمذي وابن باجه من حديث ابي هريرة وقال عبد الحميد بن حبيب بي ابي العشرين انه مختلف فيهن انظر المرجع السابق نفس الصفحة.

ويروي إمامنا أيضًا ما حكي عن ابن الدارج أنه قال: كنت مارًا أنا وابن الفوطي على دجلة بين البصرة والأيلة فإذا بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول:

كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

فإذا شاب حسن تحت المنظرة وبيده ركوة وعليه مرفعة ستمع وطلب من الجارية أن تعيد عليه هذا البيت فأعادته فقال الشاب: هذا والله تلوني، مع الحق في حالي. فشهق شهقة ومات[١].

ويعول الغزالي على أهمية معرفة صفات الله معرفة تامة لمن ينزل سماعه على الله تعالى حتى لا يخطر بباله ما يستحيل على الله ويكون ذلك سببا لكفره ويقول امامنا في ذلك ومن كان سماعه من الله تعالى وعلي الله وفيه ينبغي ان يكون قد احكم قانون العلم معرفة الله ومعرفة صفاته وإلا خطر له من السماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به[٢]، ومن هنا كان سماع المريد المبتدئ في نظر شيخنا خطر وخطأ لعدم المامه التام بصفات الله ومعرفة هذه الصفات حق المعرفة الا إذا انزل ما يسمع على حاله دون ان يتعلق ذلك بوصف الله سبحانه وتعالى ويقول هذا البيت بعينه[٣] فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر وهذا قد يقع عن جهل. فالحق سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون[٤].

وحقيقة الخطر الذي قد يحدث للمبتدئ من انزاله ما يسمع على الله تعالى مع جهله بصفاته عز وجل هو مخالفته التأدب مع الله بسره. ولذلك قيل لا يقوي عليه الا العلماء الراسخون في العلم، بل إن الغزالي يذهب إلى أن خطر هذا النوع من السماع قد يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة لأن هذا الأخير يؤدي إلى المعصية اما سماع المريد المبتدئ عن جهل وإنزاله ما يسمع على صفات الله دون معرفة ذوقية بها

---

(١) الإحياء، ج٢، ص ٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٦.

(٣) البيت هو – كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

فذلك يؤدي إلى الكفر وهو أخطر وأعظم من المعصية ويقول الغزالي ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا برأس ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة فإن غاية ذلك معصية. وغاية الخطأ هنا كفر(١).

ولابن الجوزي البغدادي رأي خاص في القول بإنكار السماع على المريد المبتدئ السماع لعلمهم بما يثير من قلبه... قال الجنيد إذا رأيت المريد يسمع فاعلم ان فيه بقايا من اللعب... وقال أبو الحسن النوري إذا رأيت المريد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا ترج خيره، هذا قول مشايخ القوم وإنما ترخص المتأخرون حب اللهو فتعدي شرهم من وجهين: احدهما: سوء ظن العوام بقدمائهم لانهم يظنون ان الكل كانوا هكذا. والثاني: انهم جرأوا العوام على اللعب. فليس للعامي من حجة في لعبه الا انه يقول فلان يفعل كذا(٢) فهو يستشهد بأقوال كبار الصوفية الاوائل على ان الصوفي الصادق الحال لا يحفل بالسماع ولا يطلبه.

وما قاله الغزالي من السماع بالحال يشبه ما قاله أبو نصر السراج الطوسي ومانعه" أن الذي يسمح بحاله يتأمل إذا سمع، حيتي يرد عليه معني من ذكر عتاب أو خطاب، أو فكر ومل، أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تأسف على ما فات، أو تعطش إلى ما هو ات أو طبع فكر، أو باس أو استئناس، أو خوف الافتراق، أو وفاء بالعهد، أو تعديل بوعد، أو اشتياق أو فرح الاتصال، أو شرح الانفصال، أو التحسر على ما هو يسل، أو القنوط على الذي امل، أو عطاء المحبة أو التمكن في العودة، أو ذكر اعتراض العبوة بعد تمكنه من الغفوة، أو ذكر المحافظة الرقيب منذ ملاحظة الحبيب أو تباريح الشجون وفنون الفنون، فإذا طرق سمعه من ذلك حاله معا يوافق حاله فيكون كالقمح في سره على قوة وإرداته فيعجز عن الضبط(٣).

أما الدرجة الرابعة فهي أعلى المقامات وهي السماع بالحق وعن الحق لا يلتفت صاحبها إلى الأحوال السابقة، وعندما يغني عن بشريته ومن الحظوظ نفسه واحوالها

---

(١) الإحياء، ج٢، ص ٢٨٦.

(٢) تلبيس إبليس، ص ٢٤٧.

(٣) أبو نصر السراج الطوسي، اللمع،ص٢٧٨.

فهو لا يلتفت إليها وان كانت أحوال شريفة إلا أنها ممزوجة بحظوظ البشرية فالسماع بالحق يكون سماع لصاحبه بالله ومن الله وإلى الله، فهو قد تجاوز أحوال النفس، وصبروا إلى الحقائق وفنوا في الافعال والأقوال ووصلوا إلى محض الإخلاص وصفا" التوحيد فخمدت بشريتهم وفنيت حظوظهم، بقيت حقوقهم فشهدوا موارد الحق بلا علة ولا حظ البشرية، تلك الموارد على أسرار حكمته وارتهم اثار قدرته وذلك فقل الله يؤتيه من يشاء[١] .

يقول الغزالي من هذا المقام: سمع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب من فهم ما سوي الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملتها وكان كالمدهوش الفائض في بحر عين الشهود الذي ضاهي حالة النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط أجسامهن[٢].

وفي حالة الحالة يكون السامع قد فني مما حوله وفني عن نفسه وبقي بالله الواحد لا يشهد إلا هو.

ومن وصل إلى هذا الحال فإنه قلبه إذا فني عما حوله التفت إلى نفسه وإذا فني عن نفسه بأنه مشاهد وهنا يكون قد غفل عن الشهود لأنه في حال استغراقه في الشهود يجب ألا يلتفت إلى شهوده ولا إلى رؤيته التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به التذاذه وإنما خبره من المستلذ به فقط كما يقول امامنا[٣].

ويشهد الغزالي بما حدث للصوفي أبي الحسن النوري عندما سمع في مجلس هذا البيت:

مازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٨.

(٢) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٨٨.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

فقام وتواجد وهام على وجهه فوقع في حقل قصب وبقيت في الأرض جذوره مثل السيوف فصار يعدو فيها ويردد البيت إلى الغداة والدم يسيل بين رجيله حتى تورمت قدماه وما قاه وماش بعدها ومات[١].

ويرى الغزالي أن هذه درجة المدقين في الفهم والوجد وهي متعه اعلي الدرجات لأن السماع ينزل فيها على الأحوال الشريفة والدرجات الكاملة فيفني صاحبها بالكلية من نفسه ويغني من أحواله فلا يكون التفاتًا إليها فيسمع بالله ولله ومن الله ويقول الشيخ في ذلك " وهذه رتبة من لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والاعمال واتحد بعفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص يبقي في التفاته إلى مقات البشرية رأساء وليست أعني بقضائه فناء جسده بل قلبه وليس أعني بالقلب اللحم والدم بل هو سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبه خفيه وراءها سر الروح الذي هو أمر الله[٢].

وهذه الآثار القلبية والمشاعر الداخلية الناجمة من سماع يعرفها أصحابها الذين عاشوها وتذوقها ويجعلها من لم يخوض التجربة فلا يعرف حلاوة العسل الا من ذاق ولذلك يقول الغزالي" عرفها من عرفها وجهلها من جهلها[٣].

ويصور السهروردي البغدادي درجات السامعين وتفاوت عنه الدرجات قائلاً" وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في فن السماع وقال: ان الباذر خرج ببذره منه كفه فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث ان احط عليه الطير فاختطفه، ووقع شيء منه على العدوان وهو الحجر قضيت عليه ووصلت مروقه إلى العفا لم تجد مسافاً تنفذ منه ووقع منه شيء على الأرض في ارض طيبة فيها شوك ثابت فلما ارتفع الشوك واختلط به، ووقع منه الشيء في ارض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على العدوان ولا فيها شوك وإنما ملح[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٨٨.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٤) عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين للغزالي ،ج١، ص٢٤٣

ويرى السهروردي أن مثال الباذر مثال الحكيم ومثل البذر كمثل صواب الكلام وما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد ان يسمعه فلم يلبث الشيطان ان يخطفه من قلبه فينساه، ومثل الذي وقع على العدوان مثل الرجل يستمع الكلام فيسحنه ثم تحفي الكلمة إلى قلبه ليس قبه عزم فينسخ من قلبه ومثل الذي وقع في ارض طيبة فيها توك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوي ان يعمله فإذا اعترفت له الشهوات قيدته من النهوض بالفعل فيترك منوي به لغلبة الشهوية ومثل الذي وقع في ارض طيبة مثل المستمع الذي ينوي به ما يفهمه ويعدل به، وبجانب هواءة، وهذا الذي جانب الهوي هو الموانئ[١].

ومن الصوفية الذين تحدثوا عن مقامات السامعين محي الدين بن عربي إلى ان للسماع حالات ثلاث هي:

الحال الأول:

أن الإنسان " السامع" إذا كان صاحب صدقه فإنه ورد عليه شيئًا وألقي إليه فالتعامل الروح معه تتحد الجوارح وينحرف الطبع ويتغير المزاج فإن الجسم انشغل منه حافظ على ما يلقه، فإذا انحرف منه الدور الممكن وقد عرق جبينه واحمر وجهه وقام كأنه نشط وهي المحادثة الأولي ولأولياء الله في هذا شرب شهي ويقول: متي اشتد الحال على الإنسان وغاب وجود الحس فإنه حمل له في تلك الغيبة علم يعقله هناك ويعقله إذا رجع (أي علم بعقله في حاله الغيبة والفناء وفي حال المحو والبقاء) ويعبر منه على قدر ما أعطاه الله تعالى من العبارة فذلك هو الحال الإلهي ويمتلئ القلب عند الإفاقة مرورًا بما عرفه فذلك حال صحيح[٢] .

وهذا يعني أن السامع الصادق الحال إذا تواجد حتى فني ووردت عليه الواردات والمعارف الإلهية وعقلها في حال الغيبة والفناء وظل عاقلاً لها في حاله يكون حال

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٢) محيي الدين بن عربي: شمس الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ومخطوط بالمكتبة الازهرية يحمل رقم(١٢٧٢ خاص-٤٣٠١٠ عام) ادأب شرعية ل٢٤ه.

الصحو والبقاء واستطاع أن يعبر عن تلك المعارف على قدر ما أعطاه الله من العبارة، فإن حاله يكون حال صحيح وهو يشعر عند صحوته وإفاقته بسعادة لا متناهية، فقد كان سماعه من الله فهو سامع بربه.

والحال الثاني:

إذا غاب السامع وفني عن نفسه ثم عاد إلى البقاء بعد الفناء دون أن ينعم بمعرفة ذوقية من لدن الله فذلك حال من حمي قلبه بالذكر وأسقط ما سمعه على أحواله الشريفة حتى تواجد وفني من نفسه ولكنه لم يجني ثمرة من الاتصال وهو حال صحيح ومقام شريف وهو أقل مرتبة من المقام السابق يقول عنه ابن عربي ما نصه: "وإن غيب ثم رد ولم يجد شيئًا إلا أنه أخذ عنه لقبضه، قبض عليه لم يتم له فائدة، ولكن غاب عن حسه فهذا حال من المزاج لما حمى القلب بالذكر أو بالتخيل صعد منه البخار من التجويف الكبير إلى الدماغ فحجب العقل ومنع الروح الحيواني ورمى بصاحبه كالمصروع، فهذا حال صحيح من المزاج، ليس فيه فائدة، ولهذا إذا سألته يقول: رأيت كأني كسيت برنسًا أسود وسحابة مرت على عيني فعميت، وهو ذلك البخار الذي ذكرناه"[(١)].

أما الحال الثالث:

فهو حال المدعي للطريق الذي يجلس في مجلس السماع وهو ينكره يسخر منه الشيطان فيوسوس له ويتصور أن ما يلقيه إليه من علوم ومعارف وهي سموم ووساوس فلا يعول على ما يقول؛ لأنه جاهل بالطريق ولا يمكنه التفرقة بين الحق والباطل ويقول في شان صاحب هذا الحال: الكذاب الذي يعقل أهل مجلسه في السماع وفي حال خلوته يذكره فهذا صاحب وسوسه وحديث نفس وقد سخر به الشيطان، فكلما يلقي إليه يتخيل أنها علوم وهي سموم فلا يعول على كل ما يخاطب به في هذه الحالة ولو

---

(١) محيي الدين بن عربي: شمس الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ومخطوط بالمكتبة الازهرية يحمل رقم (١٢٧٢ خاص-٤٣٠١٠ عام) ادأب شرعية ل٢٤هجرية.

صادف الصحة فيها، فعلم ان هذه المسالة امل عظيم عند السادة الصوفية نفعنا الله بهم فلا يعول على ما يخاطب به هذا الجاهل فإنه لا يحسن بين الحق والباطل[١].

وصاحب هذا الحال الذي هو أدنى الأحوال والدرجات لوساوس الشيطان يقول: إنه على الوجهين:

إما أن يغيبه الشيطان من نفسه ويكون كالمصروع ولكن لا يلقي إليه شيء لأنه لا يقوي على الأخذ منه.

وإما أن بغيبة إليه ويكون في باطنه حراره واستعداد للمخاطبة فيوسوس له ولو علم هذا الجاهل أن مخاطبة الحق ولا بالانتظار ولا يخاطر بالباطل ولا ببقاء الحس لرجع جهله.

وينصح ابن عربي السامع في هذا الحال بالرجوع إلى شيخه يرشده ويوجهه كما نصحه في حال الفناء الكلي من نفسه وحسه من غير تمثل ولا حس سوي مجرد فهم وحس سوي مجرد الفهم بما يكون منه وان سر المشاهدة للبهت، وسر الكشف للعلم وسر البقاء للأدب، وسر الفناء للتوحيد، وسر البسط للسؤال[٢].

وقال أبو نصر السراج الطوسي، أهل السماع على ثلاث طبقات:

- قوم يرجعون في مشاعرهم إلى مخاطبات الحق يهم فيها يسمعون في اعلي الدرجات وهم أصحاب السماع الرباني.
- وقوم يرجعون فيها يسمعون إلى مخاطبات احوالهم ومقامهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالحق يشيرون لله من ذلك وهو السماع بالحال.
- وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العمالقة ولم انتشرت بمحبة الدنيا وهؤلاء هم السامعون المؤمنون الذي يشير فيهم سماع الإنشاد الديني هيبة وخشوع ويرفق قلوبهم غير انهم السماع قربا من الله وشوقاّ واصحاب هذا المقام اقرب الناس

---

(١) المرجع السابق، نفس اللوحة

(٢) محيي الدين بن عربي: شمس الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ومخطوط بالمكتبة الازهرية يحمل رقم (١٢٧٢ خاص-٤٣٠١٠ عام) آداب شرعية ل٢٤هجرية

السلامة وابعدهم من الفتنه لطيب قلوبهم، وهؤلاء لا ينزلون السماع قرباً من الله وأبعدهم عن الفتنه وما يسميه الصوفية سماع بالعقل، ثم يقول " كل قلب طوف بعث الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف[١]. وهؤلاء هم قلوبهم يحب الدنيا فسماعهم سماع طبع وتكلف.

وقال الشيخ أبو بكر الكناني " سماع العوام متابعة الطبع" أي ان العوام يسمعون الغناء بما يوافق طبعهم وحبهم للهو والمتعة والأستاذ اما سماع رؤية الا لا والنعماء وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكتف والعيان، ولكل طل واحد من مصدر ولقاء[٢].

وذهب الإمام السيد أحمد الرفاعي إلى ان القوم سمعوا وطابوا ولكنهم سمعوا أحسن القول وأنهم فتحوا مجلس الذكر وطابت نفوسهم ومعدت أرواحهم، لاحت عليهم بوارق الإخلاص حاليًا ذكرهم وسماعهم ترى أحدهم كالغائب على حال الحاضر، يهتزون اهتزاز الإنسان التي تحركت بالوارد لا نفسها ويقولون: "لا إله إلا الله" ولا تشتغل قلوبهم بسواه، يقولون "الله" ولا يعبدون إلا إياه، يقولون: "هو" ولا بغيره يتباهون[٣].

ويقول في درجات السامعين الذاكر مع الحادي بذكر اللقاء " فطاب لقاء ربه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، سمع الحادي يذكر الفراق بالموت وتفرغ من حب الدنيا، حب الدنيا رأس كل خطيئة سمع الحادي يذكر الصالحين فتقرب بحب الله إلى الله[٤].

وهذا هو السماع بالحال الذي يسقط فيه السماع ما يسمع على أحوال نفسه وفق ما يكمن في قلبه وقد أنشد في ذلك قوله[٥]:

غني بهم حادي الأحبة في الدجى فأطـــار مـــنهم أنفســـنا وقلوبـــا

---

(١) انظر السهروردي، عوارف المعارف على هامش الإحياء" الغزالي"، ج٢، ص٢٥٢.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة .

(٣) انظر الطوسي، اللمع، ص٢٧٩.

(٤) أبو البركات، روض الأسماع في أحكام الذكر والسماع ص٧١.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

فـــأراد مقطـــوع الجنـــاح بثينـــه وهـــم أرادوا الواحـــد المطلوبـــا

أما عن السامعين بربهم فيقول عنهم" طاروا بأجنحة الأرواح فسارت بهم ودنت فتدلت... خلعوا فتخلعوا من قيد الرقية ووصلوا إلى مقام الحرية ما ملكتهم الاغيار كاد بل هم الاحرار[١]. وهذا يعني أن هؤلاء هاموا في حسب الله وفنوا فيهم القول وإنما هم في المقام الأول تحرروا عن أنفسهم وفنوا عما حولهم ويقول بالله يأخذون منه ويسمعون منه وهذه أعلى الدرجات السماع فهؤلاء هم العارفون بالله تعالى المتحابون فيه الذاكرون له من غيره فسمعوا بلا رسم ولا صفه.

أما الذين يدعون السماع والوجد فيقول فيهم أحمد الرفاعي: "السماع الذي يرقص فيه الراقص بغير النفس لطفته كيف يحسبه من الذاكرين، لله ملائكة لذكره هناك ارواح رفعت بالله ولله وانت يا مسكين ترقص بنفسك أولئك الذاكرون وأنت المغبون ، سمي الهز بالذكر رقما إذا كان وارد الهز من الروح فنسبوا الرقص للروح حق وطلب هؤلاء ضلال ... شتان بين المشرق والمغرب الراقعون كاذبون والذاكرون مذكرون وبين الملعون والمحبوب بون عظم"[٢] .

فكل سامع يسمع بما يوافق طبعه وحاله ويفهم من السماع ما تنتهي إليه همته وعلي قدر العزم تأتي العزائم.

كما قسم عبد الوهاب الشعراني الصوفي المصري (٨٩٨ هـ - ١٤٩٣م / ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥م) درجات السماع إلى ثلاث درجات سامع بنفسه وسامع يربه.

والسامع بنفسه يتأثر بالنغمات الطيبة والأصوات الحسنة وعندما يسمعها يتحرك لقلبه حتى يصل إلى الغناء" بعدها فسماع النفس ليس فيه علم.

وسامع بعقله لا تصدر منه حركة أثناء السماع وتكون علامته البهت وخمود البشرية.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٢) السيد محمد أبو الهدى المكنى بأبي البركات، روض الأسماع، في أحكام الذكر والسماع، ص٧٢.

وسامع بربه في اعلي الدرجات لا تصدر منه حركة ويستلقي على الأرض ويفني في الله ويفيض عليه ربه العلم والمعرفة الرهيبة[١] .

وقد سبق الشعراني إلى هذا التقسيم لمقامات السامع ابن القيم الجوزية حيث قال: وأصحاب السماع منهم من ابن القيم ونفسه وهواه فهذا حظه من مسموعته ما وافق طبعه ومنهم من يسمع بحاله وايمانه وقوته ومادته ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما في الحديث الإلهي الصحيح (فبي يسمع وبي يبصر) وهذا أعلى سماع"[٢].

وذلك المقام الأخير من السماع وهو السماع الإلهي لا تصدر من صاحبه حركة أثناء السماع بل يأخذ السماع طريقه إلى قلبه فيسعده ويشوقه إلى ربه ويصل إلى حقيقته وتقوي عزيمته فيتجه إلى الله تعالى ولا يرى ولا يسمع غير الله شيئًا أخر فيكون السماع له بمثابة الدليل والداعي فما يلبث الدليل والداعي فما يلبث الملك أن يستلقي على ظهره ويفني عن نفسه ويبقي بالله.

ويقول الشعراني عن صاحب هذا المقام ما نعمه. وإذا جاء الوارد الإلهي من العلوم الالهية، ثم يبقي الجسم لا يجد من يحفظ عليه القيام والقعود فيرجع إلى امنه، وهو لموقعه بالأرض، المسبر عنه بالانطباع فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي رجع إلى جسده فأقامه من فجعته[٣].

وقال أبو عثمان الحيرى: السماع ثلاثة أوجه:

فوجه منها للمريدين المبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ويخشى عليهم في ذلك الفتنه والمراءة.

والثاني: للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم.

---

(١) عبد الوهاب الشعراني، كشف القناع من وجه السماع محفوظه بمكتبه الازهر رقم ٩١٧ خاص، ٢٣٤٤٤عام .

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، طبعة اولي،ج١، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٣) عبد الوهاب الشعراني، كشف القناع من وجه السماع ل٢١٣و.

والثالث لأهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى ما يرد على قلوبهم من الحركات والسكون[1].

وكان أبو على الدقاق الصوفي يقول الناس في السماع ثلاثة: متسع، ومستمع، وسامع، فالمتسع يسمع بوقت والمستمع يسمع بحال، والسامع يسمع بحق.

(١) الرسالة القشيرية،ج٢، ص٦٤٨.

(٢) حقيقة الوجد:

الوجد من آثار السماع كما ذكرنا فما حقيقة الوجد كما يراها الصوفية؟ قال ذو النون المصري: (السماع وارد حق جاء يزعج القلب إلى الحق ومن اعفي إليه بنفس تزندق)[١]. فالوجد في هذا التعريف يعني انزعاج القلب إلى الحق وهذا الانزعاج ما هو إلا شعور يجده الصوفي في نفسه من أثر السماع لمن كان صادق الحال.

وقال أبو الحسين الدارج من الوجد" الوجد عبارة عما يوجد عند السماع وعبر من وجد من خلال" تجربته الخامة قائلاً" جاء به من السماع من ميادين البهاء، فأوجدني في وجود الحق عند العطاء فمقاني بكاس العفاء فادركت به منازل الرضاء واخرجني إلى رياض التنزه والقضاء[٢].

وقال عمر بن عثمان الملكي: لا قع على كيفية الوجد" أي لا يمكن للألفاظ والعبارات التعبير عن حقيقته) لأنه سر الله عند عبادته الموقنين المؤمنين"[٣] وقيل أيضًا ان الوجد هو مكتشف الحق[٤].

وقال عنه أو سعيدين الاعرابي: التوحد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر.

وإيناس المفقود وهو فناك من حيث أنت[٥]. وقال أيضًا: "الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوا وسطع في قلوبهم نوره زال كل شك وريب[٦].

ويذهب أبو سعيد إلى الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والاسباب لان النفس محجوبة بأسبابها، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

القلب ورق العفا ونجحت الموعظة فيه، وحل من المناجيات محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد لأنه قد ما كان معدوماً عنده(١).

وقد عرف أبو سعيد الوجد بقوله " الوجد ما يكون عند الذكر مزعج أو خوف تعلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو ندم على ماضي أو استجلاب إلى حال اوداع إلى واجب أو مناجاة بسر، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر، والباطن بالباطن، والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعي فيه فيكتب ذلك إذا كان هو المبتدي بالنعم والمتولي، واليه يرجع الأمر كله(٢).

اما تعريف الغزالي للوجد فهو كما يقول" الوجد عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع في نفسه(٣).

ومما سبق يتضح لنا ان الوجد الذي يستشعره الصوفي هو حالة نفسية تعتري السامع أثناء السماع فيشعر من خلالها بمشاعر قوية تهتز كيانه أو تزعجه قد تكون ندما على ذنب أو شوقاّ إلى لقاء أو انس باقتراب الخوف أو تعلق والوحدة في النهاية امر ذوقي بحث يشعر به الصوفي ولا يشاركه فيه احد ويصعب التعبير عنه بالألفاظ(٤).

واذا كانت هذه بعض الاقوال الصوفية في الوجد فإن الغزالي التي يعرض لنا بعض أقوال الحكماء في الوجد فيقول " عبر بعض الحكماء عن الوجد بأن في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة المنطق على اخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان. فلما ظهرت وطربت إليها فاستعموا عن النفس وناجوها وعوا مناجاة الظواهر(٥).

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٤) انظر أبو البركات، روض الأسماع في أحكام الذكر والسماع، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني في حديثه عن أحوال الصوفية في كتابه مدخل إلى التصوف الإسلامي وكتابه ابن عطاء الله السكندري وتصوفه في حديثه عن حال الصوفي أثناء الذكر، ص١٩٣ وما بعدها.

(٥) لغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

كما عرف الحكماء الوجد بقوله" نتائج السماع استنهاض من الراي واستجلاب العازب من الافكار الكمال من الافهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل راي وفيه فيصيب وليخطئ ويأتي ولا يبطئ[١].

ومن تعريفات الوجد أيضًا القول بانه الفكر يطرق العلم إلى المعلوم والسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني[٢].

كما عرف الوجدان feeling بأنه مجموعة الظواهر الوجدانية من لذه والم وانفعال وعرف الوجداني بانه صلة بالوجدان كاللذة والالم ويقابل الفكر والنزوعي من أحوال النفس[٣] .

ويعلل الحكماء حركة الأطراف نتيجة للوجد عند السماع هذه الحركة تكون على وزن الألحان والإيقاعات وهي عشق عقلي لا يناجي معشوقه ، وهي ان كانت حركات بدنية الا انها تعبر عن معان روحية، اما العاشق البهيمي فإنه يستعمل المنطق الجرمي يعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه الزائف[٤].

وهذا يعني أن سبب الحركات الجسيمة التي يأتي بها العاشق لله الذي تتحكم فيه نفسه الناطقة أو العقل عند السماع ليس تعبيرا عن مدي حبه وعشقه لله بحركة جسمية وإنما كما يقول الغزالي حركات واشارات لطيفة ظاهرة تعبر عن معاني روحية باطنة أو كما يقول ابن سينا حتى توافق الابدان الأرواح واها لغلبة الشوق وانها سبب حضور القلب وجمعيته بين يدي الله واعراضه عن الدنيا وهي خير محض لأنها أثر لدخول نور الله في القلب[٥].

والوجد عن الغزالي لا يخلو من أمرين:

---

(١) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) انظر المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، تصدير الدكتور/ إبراهيم مدكور، ص٢١٠، ٢١١.

(٤) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩

(٥) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.، وانظر ابن سينا في الصلاة ،ص٨

١. فهو إما أن يرجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات.

٢. وإما أن يرجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والنوم والقبض وكلها أحوال يهيجها السماع ويقويها فإن ضعف السماع بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو ينطق على خلاف عادته، أيضًا فأذن ذلك لا يسعي وجدًا، أما إذا ظهر على المستمع علامات ظاهرية وإشارات معبره عما بداخله سعي ذلك وجدًا.

والوجد إما أن يكون ضعيفًا أو يكون قويًا بحسب ظهوره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده.

ويذهب الغزالي أن الواجد (وهو من يكون في حالة وجد) إذا كان قويًا وقادرًا على ضبط نفسه والتحكم في انفعالاته، سكون وجده قويًا من الباطن، وانفعالاته الداخلية شديدة غير أنه يستطيع أن يضبط جوارحه فلا يحدث حركة تعبيرًا من وجده فلا يتغير لقوه تحكمه في ضبط جوارحه[١].

وإلى مثل هذه الحالة أشار الصوفي أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال: إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع سببا للكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله فإن الكشف يحصل لأسباب منها التنبيه والسماع منبه ومنها تغيير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها، فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود ومنها صفاء القلب والصفاء بسبب الكشف ومنها ما كانت تقصر عنه من قبل قوته[٢].

فالوجد هو انبعاث نشاط القلب بقوة السماع لاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت . ويذهب الغزالي إلى أن القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من ستين واربعين جزءا من النبوة، ويقول

---

(١) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

الغزالي أن علم الحقيقة ذلك خارج عن علم المعاملة ولا أدل على ذلك مما روي عن ابن مسروق البغدادي أنه قال: " خرجت ليلة في أيام جهالتي وكنت أغني هذا البيت:

بطـور سـيناء كـرم مـا مـررت بـه ألا تعجبـت ممـن يشـرب المـاء

فسمعت قائلاً يقول:

وفـي جهـنم مـاء مـا تجرعـه خلـق فـأبقى لـه فـي الجـوف أمعـاء

فكان سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة"[١].

فقد تأثر بما سمع تأثرًا عظيمًا كان سببًا في تركه الخمر والتوبة من الذنوب والرجوع إلى الله.

ويذهب الغزالي إلى أن القلب صفي وخلي من حب الشهوات والاهواء وهمر بحب الله واستنارت بنوره تعالى لا يقف الأمر عند سماع الهاتف فقط، بل يعمله صاحبه إلى أن يشاهد بالبصر صورة الخضر عليه السلام، ويقول الغزالي: " إنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة، وفي مثل الحال تتمثل الملائكة والأنبياء عليهم السلام[٢].

وفي مثل هذه الأحوال من صفاء القلوب تحدث أيضًا المكاشفة فيطلع صاحب ذلك القلب الظاهر على ضمائر القلوب ويقول الغزالي: " ويعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس" ولذلك قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "اتقوا فراسه المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[٣].

ويروي الغزالي أن رجل من المجوس كان يدور على المسلمين ويسال عن معني قول الرسول: " اتقوا فراسة المؤمن" فكان يذكر تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية فسأله " معناه أن تقطع الزنار الذي على وسطك تحت ثوبك" فقال صدقت هذا معناه واسلم وقال الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق.

---

(١) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

والثمار التي تترتب على الوجد ويجنيها أصحاب القلوب الصوفية (أي المكاشفات والأحوال) ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه ولعله يستبعد حاله أو علما لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عن حقيقته فلا تستبعد ذلك فإنك تجد في احوالك الغربية لذلك الشواهد[١].

ويؤكد الغزالي المعنى السابق أن العلم فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بدقة أن بينها فرقا في الحكم وإذا كلف بذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس لا بالقصور في لسانه بل لدقه المعنى في نفسه أن تناله العبارة[٢].

ويذهب الغزالي إلى أن حقيقه هذا لا يفطن إليها الا أصحاب الأذواق والمكاشفات.

والإنسان قد يشعر في نفسه فرحًا أو بسطًا أو غيرها من الأحوال ولا يعلم أن القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من ستين وأربعين جزءًا من النبوة، فالأقوال مواهب من الله تعالى ترد على لسانك دون تعمد منه وهي زائلة وهناك من الأحوال ما يمكن التعبير عنها باللفاظ واخري لا يجسد صاحبها عبارات تعسفها فيعجز عن التعبير عنها ويقول الغزالي في ذلك" امال الحال فكم من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح الإنسان في شيء فيترك في نفسه وهو يشعر به، وقد تكون الحالة صاحبها عبارات تعفها فيعجز التعبير عنها ويقول الغزالي في ذلك " اما الحال فكم من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه فينسي على الإنسان في شيء فيترك في نفسه وهو يشعر به فينسي المتفكر فيه ويحس بالأثر عقبيه، وقد تكون تلك الحالة حالة غربية لا يعبر عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة[٣].

---

(١) الغزالي" إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) إحياء علوم الدين ،ج٢، ص٢٩١.

وقد انتقد ابن الجوزي البغدادي كلام الصوفية في الوجد بقوله هذه الطائفة(إي الصوفية) إذا سمعت الغناء تواجدت ومزقت الثياب وقد لبس عليهم إبليس في ذلك الوقت، وقد احتجوا... بما أخبر به أبو نصر سراج الطوسي أنه لما نزلت: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[١]، صاح سليمان الفارسي ووقع على رأسه ثم خرج هارباً ثلاثة أيام[٢]. وذكر ابن الجوزي قصصًا كثيرة رواها الصوفية واستدلوا عليها من السماع يبعث عن الوجد وذهب إلى ما ذكروه عن سليمان الفارسي محال وكذب وليس له اسناد وسليمان بالمدينة ولم ينقل عن احد من الصحابة مثل هذا املاً[٣].

ويستشهد ابن الجوزي على إنكار السماع والوجد الناتج عنه بأن سفيان الثوري أنكر أن يكون الربيع بن خيثم قد صعق عند السماع القرآن ويقول: فهذا سفيان الثوري ينكر ان يكون الربيع ابن خيثم[٤] جرى له هذا (أي صعق من السماع) لأن الرجل كان على السمت الأول نقول على تقدير الصحة أن الإنسان قد يخشى عليه من الخوف فيسكنه الخوف ويسكنه فيبقي كالميت وعلامة الصادق أنه لو كان على الحائط لوقع لأنه غائب، فأما من يدعي الوجد ويحتفظ من أن تزل قدمه ثم يتعدى إلى تخريق الثياب وفعل النكرات في الشرع فأننا نعلم قطعا ان الشيطان يلعب به[٥].

ويروى أن حصين بن عبد الرحمن قال لأسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ كانوا كما ذكرهم الله أو كما وصفهم الله عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم، ومعناه أن رجالاً إذا قرئ على أحدهم القرآن غُشي عليه فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١) سورة الحجر ، آية ٤٢.

(٢) تلبيس إبليس،ص٢٥٠.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) ارجع إلى كتاب ابن الجوزي ، تلبيس إبليس للوقوف على مزيد من التفاصيل في نقد مسالك الصوفيه في الوجد من ٢٥١، ص٢٥٦.

(٥) المرجع السابق ، ص٢٥٣.

وقلوب الصحابة كانت أصفى قلوب ولم يصرفوا أو يضربوا صدورهم كالجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان.

ويقول ابن الجوزي البغدادي قائل " إنما بفرض الكلام في الصادقين لا أهل الرياء فما تقول فيمن ادركه الوجد ولم يقدر على دفعه فالجواب ان أول الوجد انزعاج في الباطن فإن كف الإنسان نفسه كيلا يطلع على حاله يئس الشيطان منه فإنه أهمل نفسه أو أحب اطلاع الناس على نفسه نفخ فيه الشيطان فانزعج على قدر نفخه[١].

ويقوا أيضًا ابن الجوزي إن الكلام فيمن اجتهد في دفع الوجد فلم يقدر عليه وغلبه الأمر أو أي علاقة الصادق أنه لا يقدر على أن يدفع ولا يدري ما يجري عليه فهو من جنس قوله عز وجل: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[٢].

وقال ابن الجوزي أيضا: فهل في حق المخلص نقص بهذه الحالة الطارئة عليه؟ في نعم من جهتين: أحدهما أنه قوي العلم امسك، والثاني أنه قد خولف به طريق اصحابه والتابعين ويكفي هذا نقصاً[٣] .

وقد أنكر ابن الجوزي على الصوفية الرقص عند السماع بقوله: " تعالوا نتقاضى إلى العقول أي معني في الرقص إلا اللعب يليق به الأطفال، وما الذي فيه تحريك القلب إلى الاخرة، هذه والله مكبرة باردة وقد حدثني بعض المشايخ عن الغزالي انه قال الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول الا بالتعب قال أبو الوفا ابن عقيل قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[٤]، وذم المختال فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٥].

---

(١) تلبيس إبليس، ص٢٥٦.

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٤٣.

(٣) تلبيس إبليس ص٢٥٧.

(٤) سورة الإسراء، آية ٣٧.

(٥) تلبيس إبليس ، ص٢٥٩، سورة لقمان، آية ١٨.

ويستشهد ابن الجوزي بمعاصريه من مشايخ الصوفية لم يرى أحد منهم يرقص[١]، أو يصفق أو يصعق عند السماع كالشيخ ابن القاسم بن زيدان، وعبد الملك بن بشران وابي طاهر بن العلاف والجنيد والدينوري[٢].

واذا عدنا إلى حديث الغزالي من الوجد فأننا نجده قد قسمه إلى قسمين:

وجد يمكن إظهاره، ووجد لا يمكن إظهاره.

كما قسم أيضًا الي: وجد هاجم ووجد متكلف وهو ما يسمي بالتواجد وهذا التواجد المتكلف منه وهو التواصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة ومحاولة اكتسابها والحضور فيها ويقول الغزالي" ولذلك فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن[٣]. فإذا حاول الإنسان ان يستجلب الوجد ويستدعي الشعور بما يسمع فيكون وجدا هاجما ويقول الغزالي" فإن هذه الأحوال قد تتكلف من مبادئها في اواخرها وكيف يكون التكلف سببا في أن يعبر التكلف في

---

(١) يقول ابن الجوزي البغدادي إذا اشتد طربهم(إي الصوفية) في حال رقصهم جذب بعض الجلوس ليقوم معه ولا يجوز على مذهبهم ان يقعد فإذا قام قام الباقون فإذا كشف احدهم راسه كشف الباقون رؤسهم موافقه له ولا يخفي عليه وفيه اسقاط المروءة وترك الأدب يقع في المناسك تعبد الله وذلاله ، فإذا تمكن منهم الطرب رموا ثيابهن على المغني فمنهم من يرمي صحاحا ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها واحتج بعض الجهال فلا يلامون فإن موسي رمي الالواح فكسرها ولم يدري ما صنع : والجواب ان نقول ما يصحح عن موسي بنه يرمي في غيبة حتى ولو كان بين يديه بحر ومن يصحح هؤلاء من بثر ان كانت عندهم ثمكيف يقاس أحوال الأنبياء على أحوال السفهاء، ثم لو قدرنا ان القوم يصحون على غيبة فإن تعرضهم لما يغطي على العقول من سماع ما يطرب عنه كالتعرض لكل ما غالبه الأذى، وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخزيق ثيابهم فقال خطا وحرام وقد نهي رسول الله صلي الله عليه وسلم عن اضاعه المال وعن شق الجيوب فقال له قائل: انهم لا يعقلون ما يفعلون، قال: ان حصروا هذه الامكنة مع علمهم ان الطرب يغلب عليهم فيزيل عقولهم اثموا بما يدخل عليهم من التخزيق لانهم مخاطبون قبل الحضور بتجنب هذه المواقع ارج إلى تلبيس إبليس، ص٢٦٠، ص٢٦١.

(٢) إحياء علوم الدين، ص٢٩٢.

(٣) إحياء علوم الدين، ص٢٩٢.

الآخرة ويقرروه تكلفا وكل من يتعلم القرآن أولا يحفظه تكلفا مع تمام التأمل واحضار الذهن يعبر ذلك دينا للسان مطردا حتى يجري به لسانه في العلاه وغيرها[١] .

فالسامع يتكلف الوجد في أول مرة ثم يلبث يعير التكلف طبعا فيتواجد دون تكلف ويصبح لديه عادة ان يتواجد على السماع.

ولذلك ينصح الغزالي بعد الياس من وقوع الأحوال الشريفة لمن يتفقدها بل عليه ان يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره وان يستعين بالدعاء إلى الله تعالى أن يجعله من أصحاب الأحوال وأن ييسر له أسبابها[٢].

لقد عرضنا رأي الغزالي في الوجد ورأي من ينكر السماع إلا لأصحاب القلوب الصافية وأن التجربة الصوفية من أولها إلى آخرها ولم يعاني من الأذواق والمواجد التي يعاني منها الصوفية ولذلك فإن الكثير وما أعربوا عنه أحوالهم يبدو غريبًا وغير مستساغ من غير الصوفية من عامة الناس وإذا كان بعض الصوفية يعبرون عن وجودهم في شيء من المبالغة أو التكلف بهذا يجب تجنبه ويجب الالتزام بآداب السماع التي كثيراً محادثنا عنها الصوفية أنفسهم والتي حدثنا الغزالي عنها.

والغزالي وغيره من الصوفية ينهون عن ادعاء التصوف والالتزام بآداب الشرع في كل كبيرة وصغيرة وينفي الغزالي ان يكون الشيطان حليفا لأصحاب القوب الصافية ويقول: " إنما تحوم الشياطين بالصفات المذمومة فإنها مرعى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[٤].

ويشير الدكتور أبو الوفا الغنيمي إلى الدراسات التي قام بها علماء النفس حول التصوف هل هي سوية؟ ومن هؤلاء ذكر على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٢ ص٢٩٣.

(٢) ارجع إلى المرجع السابق، ص٢٩٣ وما بعدها.

(٣) سورة الحجر، آية ٤٠.

(٤) سورة الحجر، آية ٤٢.

عالم النفس الأمريكي وليم جمس (jame-w)[١] وليوبا (leuba jame-h)[٢] وباستيد (bastide roger)[٣] وزاندر هايل (underhill everlyn)[٤].

ويرى الدكتور التفتازاني أن كثيرين من علماء النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية لم ينفعوا الصوفية وارجع ذلك إلى بعض الأخطاء المنهجية في الدراسة فهم كانوا يحصرون أنفسهم في دائرة التجربة الحسية من أحوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة العمومية- ويرى أستاذنا الدكتور أبو الوفا الغنيمي هذا النوع من الحالات الصوفية حكمًا علميًا فلا بد من أن يقوم بتجربته أو يكون لديه استعداد لتذوقه، إما أن يصطنع علماء النفس في بعض الأحيان منهج المماثلة في دراسة حالات التصوف فهذا هو الخطأ بعينه لتعذر ماثلتهم للصوفي في حالاته الوجدانية الخاصة مماثلة حقيقة وليسوا بصوفية هذا الجانب وهذا لا يعني أن دراساتهم ليست دراسات تجريبية بمعني الكلمة[٥].

وأستاذنا يرى أيضًا أننا جعلنا من الصوفي شخصًا مريضًا لجعلنا كذلك الشاعر والكاتب والموسيقي جميعًا مرضى لا لشيء إلا أنهم يعانون مشاعر خاصة لا يعانيها غيرهم من أفراد الناس العاديين[٦].

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الآداب التي يجب على السامعين الالتزام بها في مجالس السماع، بعد أن وقفنا على درجات السامعين واختلاف انفعالاتهم الوجدانية واستجابتهم وبعدها عرفنا أن الأكمل من القوم هو الذين يتحكمون في وجدهم.

---

(١) انظر كتابه: The varietles of religious experience , New York, ١٩٣٢

(٢) انظر كتابه: Psychologie du mysticisme religieux, traduction francaise, par lncien herr, ١٩٢٥

(٣) انظر كتابه: Les problemes de la vie mystique, Paris, ١٩٣١

(٤) انظر كتابه: Mysticism: Astudy in the nature and development of man's spiritual consciousness, ١٩٤٦

(٥) ارجع إلى كتاب أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، الطبعة الثانية، ص١٣،١٢.

(٦) المرجع السابق، ص١٤.

(٦) آداب السماع

وضع الصوفية آداب للسماع وأوجبوا الالتزام بها في مجالسهم وما من صوفي تناول موضوع السماع إلا ودعي إلى الاهتمام بمراعاة تلك الآداب واحترامها وقد وضع الصوفية قواعد وأصولا منها ما يتخلق به السامع ومنها ما يخض به السامع ومنها آداب خاصة بما يقال من أشعار وألحان.

وقد أجمل الغزالي آداب السماع في خمسة آداب هي:

الأدب الأول: مراعاة الزمان والمكان والإخوان:

فشيخنا يرى من آداب السماع ان يكون في الوقت المناسب لذلك فلا يصح أن يكون السماع في وقت حضور الطعام أو في وقت الصلاة أو في أي وقت يشغل الناس فيه أي شاغل يعرفهم عن الانتباه فلا ينصرف الا إليه وبذلك يثمر السماع.

ويقول الغزالي: (قال الجنيد" السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع الزمان، والمكان، والأخوان"

ومعناه أن الاشتغال به وقت حضور الطعام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه[١].

فيجب مراعاة فراغ القلب في رأي شيخنا، أما السهروردي فإنه يرى من آداب السماع ألا يكون للسامعين وقت محدد للسماع فهو يقول ما نصه: " ومن آدابهم (أي: الصوفية) ألا يتكلفوا فيه (أي في السماع) ولا يكون لهم وقت معلوم لذلك"[٢].

أما المكان فيرى الغزالي أنه يجب أن يكون مناسباً للسماع فينبغي ألا يكون في الأماكن العامة كالطرقات والشوارع وإنما يكون في مكان لائق غير مطروق وليس به ما يشغل السامع ويقول الغزالي " أما المكان فيجب ألا يكون شارعًا مطروقًا أو موضعًا كريه الصورة يشغل القلب فيجتنب ذلك"[٣].

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٩٨.

(٢) السهروردي : آداب المريدين، تحقيق فيهم محمد شلتوت، ص١٠٤.

(٣) الغزالي : الإحياء، ج٢، ص٢٩٨.

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن عربي مع أن السماع يجب أن تجري جلسته في زاوية لا يدخلها إلا الصوفية الذين يعتقدوا في السماع ويقول " تجري جلسة السماع في زاوية ولا يدخل فيها من ليس له شيخ"[١]. ويقول أيضًا: " فمن آدابهم في السماع ان لا يكون بينهم ما ليس من طريقهم ولا من هو في طريقهم إذا كان لا يقول بالسماع فإنه يقبضهم بتغيره فلا بد ان يكون السامعون مجتمعون على قلب واحد"[٢].

وهذا النص أيضًا يتناول لابن عربي إلى جانب انه يحدد المكان فهو أيضًا يتناول الاخوان الذين يجتمعون وحديثه عمن يحضرون مجلس السماع يشبه ما قاله الغزالي في هذا الصدد الذي بري ان الاخوان الذين يجتمعون للسماع يجب ان يكونوا صحبة ة طيبة ليس بينهم متكبر من أهل الدنيا أو منكر أو متكلف للوجد ممن يأتي من الحركات ما يشغل الجالسين برقصه وتمزيق ثيابه ففي رأيه أن ترك السماع عند وجود هؤلاء أولى ويقول ما نصه: أنه إذا حضر غير الجنس (أي غير الصوفية من العامة) من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستقلاً أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائي بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ذات شوشات، فترك السماع عند فقد هذه الشروط اولي ففي هذه الشروط نظر للمستمع[٣].

وهذا القول يتفق أيضًا مع ما ذكره السهروردي من آداب الصوفية في مجالس السماع[٤].

ولا شك أن مجلس السماع إذا ما تم في المكان والزمان ولميكن من بين الحضور من ليس من أهل السماع لساعد على جمع النفس وخلق جوا لإثارة الوجد واثمار السماع فتلك المؤثرات الخارجية لها دور كبير في نفوس السامعين ولذا يجب مراعاته.

---

(١) ابن عربي، المواقع ١٦٥.

(٢) محيي الدين ابن عربي، رسالة آداب الشيخ والمريد ل١٩ظ مخطوط بمكتبة الازهر الشريف تحت رقم (١٠٧٠ خاص- ٣٣٥٨٠ عمومي) مجاميع حليم.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢،٢٩٨

(٤) انظر السهروردي، آداب المريدين، ص١٠٤، ص١٠٥

الأدب الثاني:

ومن آداب السماع التي يرى صوفينا ضرورة الالتزام بها في مجلس السماع ألا يكون من بين الحاضرين من يمكن أن يضره السماع أو يسبب له أذى فيجب على الشيخ أن يشغله عن الجلس بأن يطلب منه عمل شيء أو تأدية خدمة حتى يصرفه عن المجلس ولا ينشغل بالسماع ويقول الغزالي ما نصه: " ومن يستضر بالسماع أحد ثلاثة هم:

١. أن يكون قد انكسر شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولي على قلبه حب الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا انفتح له باب السماع انزل المسموح في حق الله تعالى وما يجوز ولا يجوز هي اعظم من نفع السماع[١].

وقد قال سهل بن عبد الله التستري في ذلك: " كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة باطل"[٢]. فلا يصح السماع لمثل هذا الشخص ويجب إبعاده حتى لا يقع في المحظور.

٢. كما لا يصلح السماع لمن لا يزال في قلبه حب الثناء ويقول الغزالي: ولا يصلح السماع لمن قلبه ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء[٣].

لذلك قال الصوفية : السماع لقوم كالغذاء ولقوم كالداء ولقوم كالدواء ولقوم مروحة[٤].

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي النيسابوري (٣٢٥هـ -٤١٢هـ) "الوجد قد يكون زيادة لقوم ونقصا في قوم، وهو كالسلاح يصلح للجهاد في سبيل الله ولقتل أولياء الله وكذلك الشمس تصلح شيئًا وتفسد شيئًا آخر".

ويقول السهروردي البغدادي عندما سئل عن التكلف في السماع فقال: هو على ضربين تكلف من المستمع لطلب الجاه أو منفعة دنياوية وذلك تلبيس وخيانة، وتكلف

---

(١) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٩٩

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٤) السهروردي : آداب المريدين، تحقيق فيهم محمد شلتوت، ص١٠٨

منه (أي سامع) لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بمنزله التواجد وهو منزله التباكي من البكاء[١] . ففي رأي السهروردي ان التكلف في السماع على ضربين: إما تكلف الجاه والمنفعة الدنياوية، وإما تكلف لاصطناع الوجد ومحاولة التواجد كالتباهي أو اصطناع البكاء الذي قد يؤدي إلى البكاء الفعلي والأول مذموم والثاني محمود.

ويقول عبد الوهاب الشعراني:" الخلل في حال السامع لكونه كاذبا في حاله بأن يتحرك صاحب النفس بالشعور والإحساس فيكون مسخرة للشيطان وملعبه للوساوس مردودا عند الله وعند الناس[٢].

كما أن محيي الدين بن عربي دعي إلى منع الذين يعجزون عن تلقي تجربة الأحوال الصوفية الصافية[٣].

٣. أيضًا لا يصلح السماع لأجل التلذذ فسماعه هذا يشله عن العبادة ولا يؤدي به إلى الوجد فالسماع كما يقول شيخنا مزلة يجب حفظ الضعفاء منه[٤].

فمجلس السماع لا يعقد للهو مع انه لا يجوز ان يحضر مجلس السماع من يبتسم أو يتلهى فهم لا يسمعون للتطايب والتلهي[٥].

ولا ريب أن من جوّز السماع من الصوفية يجمعون على ترك اللهو في السماع فمن يطلب اللهو والتلذذ بالأنغام فيطلبه بعيدا عن مجالس السماع وإنما لأثارة الوجد وجمعية الباطن وترقيق القلب واستجلاب الأحوال الشريفة.

---

(١) المرجع السابق ، ص١٠٩

(٢) كشف القناع عن وجه السماع، مخطوطة بالمكتبة الازهرية رقم (٩١٧خاص-٣٣٤٤ عام) تصوف حليم ك٢١٤

(٣) انظر ، ابن عربي، لرسالة في آداب الشيخ والمريد ، مخطوطة بالأزهر الشريف يحمل رقم(٧٠ خاص-٣٣٥٨٠ عام) مجاميع تصوف ل١٩ظ)

(٤) السهروردي: آداب المريدين، ص١٠٨.

(٥) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٩٩

الأدب الثالث:

أن يكون السامع منتبهًا كل الانتباه ما يسمع من القوال صافيا فهدوء وسكينة حاضر القلب لا يشغله شاغل من داخل نفسه كان يتفكر في موضوع يشغله من السماع أو شواغل خارجية كالنظر إلى وجوه الحاضرين أو مراقبة حركاتهم وما يظهر عليهم من أحوال الوجد فيغفل من نفسه ويغفل عما حوله ويركز كل اهتمامه في السماع ومراعاة ومراقبه ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سرهم متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه بل عليه ان يكون كامل الظاهر هادئ لا يأتي بحركات كثيرة لا سيما التنحنح والتثائب، ويجلس مطرقا رأسه متفكراً متماسكًا عن الرقص وسائر الحركات، وخاصة الحركات المتكلفة المصطنعة التي تدل على المراءة أكثر من أن تكون تعبيرًا عن الوجد، ويجدر به ألا يتكلم فإنه غلبه الوجد وحركة بغير اختيار فهو في هذه الحالة معذور غير ملوم، لأنه يكون غير متحكم في نفسه وإذا عاد مرة ثانية إلى وعيه وتحكم في نفسه فعليه ان يلزم الصمت والسكينة، صادقا دون رياء[١] .

ويذهب الغزالي إلى ان السامع إذا التزم الصمت والسكون فإن ذلك لا يدل على هدم وجده وإنما يجب عليه مراعاة حاله وصدق مشاعره وعد التكلف ومراقبه دون مراعاة لكلام الغير، ويخلص قلبه لله.

ويقول الغزالي" فإن قلت الافضل هو الذي لا يحركه السامع ولا يؤثر في ظاهره، يكون لقصف الوارد من الوجد فهو نقصان وتارة يكون مع قوة فهو كمال، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال فلا يتبين، للسماع مزيد تثير وهو غاية الكمال[٢].

وبذلك يكون أهم آداب السماع أن يكون السامع صادق مع نفسه وصادق مع الله وأن يكون بعيدًا عن الرياء والتكلف فإذا صدرت عنه حركة أو لم تصدر فإن ذلك يكون

---

(١) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٩٩

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة

تبعًا لحالة فقد يكون لضعف وجده أو لقوته غير أنه في كل الأحيان يجب أن يكون صادقاً ومتزنًا.

وقد سئل بعض المشايخ الصوفية عن شرب القلوب من السماع وشرب الأرواح منه وشرب النفوس فقال: شرب القلوب الحكم، وشرب الأرواح النغم، وشرب النفوس ذكر ما يوافق طبعها من الحظوظ(١).

ويقول السهروردي: " ليس من الآداب استدعاء الحال والتكلف فتزعج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق.... وترك ذلك أولى"(٢).

ويذهب الغزالي إلى ان صاحب الحال في اغلب الأحوال لا يدوم وجده الا لأنسان المراقب لربه المرابط للحق الملازم لعين الشهود(٣). ويقول ما نصه" ولأبعد ان تكون الإشارة بقول الصديق وفي الله كما كنتم ثم قست قلوبنا في كل الأحوال فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديد في حقنا علينا حتى نتأثر به فإذا قوة الوجد تحرك قوة العقل والتماسك بضبط الظاهر(٤).

فالسامع الذي يكثر من الحركات الانفعالية غير المضبوطة أو يكثر في الصياح لا يكون أشد وجدًا من السماع الذي يجلس في سكونه فهذا الأخير قد يكون أعظم وجدًا

---

(١) السهروردي: آداب المريدين، تحقيق: أبي النجيب محمد شلتوت،١٠٨

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٣) الوجد شعور موقت يشعر به الصوفي وقلما دام مع صاحبه شانه شان الأحوال الصوفية الأخرى كالقبض والبسط والأنس وغيرها من الأحوال الصوفية هو معني يرد على القلب من غير تعمد منهم أو الشوق أو الانزعاج فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والمقامات تأتي من عين المقامات تحمل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مشرق في حاله، انظر الرسالة القشرية ص٥٤ وقيل الحال هو معني يرد على القلب من غير تعمد ومن لم يعقبه المثل قال بداومه وقيل أيضًا الحال تغير الاوصاف على العبد(التعريفات للجرحاني، ص٣٣٤) وانظر أيضًا : السهروردي: آداب المريدين،ص١٠٥.

(٤) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٩٩

إلا أنه أكثر تحكمًا في نفسه " فلا تظن ان الذي يضرب بنفسه على الأرض أتم وجدًا من الساكن باضطرابه بل رب ساكن وجداً من المضطرب[١].

وقد حكي عن " الجنيد" أنه كان يتحرك في السماع في بداية سيره في طريق التصوف ثم صار لا يتحرك بعد ذلك ما سبب ذلك" وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء[٢].

وهذا يعني أن قلبه هائم في الملكوت بينما جوارحه متأدبة وساكنة في الظاهر.

وكبار الصوفية يعتبرون ان شدة الانفعال وكثرة الحركة أثناء السماع لضعف الحال وان أصحاب الهمم القوية والعزائم الراسخة لا يضطربون من السماع ولكنهم يسيطرون على مشاعرهم ويتحكمون في انفعالاتهم فيشعرون بالوجد الا انهم لا يأتون بحركة لقوتهم.

ومن ذلك ما قاله الصوفي أبو الحسن محمد بن احمد وكان بالبصرة" صحبت سهل بن عبد الله التستري ستين سنة رايته تغير من شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه : ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾[٣]. فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال: نعم يا حبيبي قد ضعفنا[٤] . ويحكي أيضًا عن أنه سمع قول الله تعالى: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾[٥]. وكان من أصحابه فما قوة الحال" ان يرد عليه وارد الا وهو وان كانت قوية[٦].

وقال الجنيد: لا يضر نقصان الوجد مع دخل العلم والعمل أتم من فعل الوجد[٧].

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٢) الغزالي ، الإحياء،ج٢، ص٢٩٩، سورة النحل، ايه ٨٨

(٣) سورة الحديد، آية ١٥

(٤) تعريف، المرجع السابق، نفس الصفحة

(٥) سورة الفرقان ، آية ٢٦

(٦) الإحياء،ج٢، ٣٠٠

(٧) إحياء ،ج٢،ص٢٩٩

ويرى الغزالي أن سبب القدرة على ضبط شهوة السامع قويا كلما خدمت بشرعية وراء سكوته.

ويذهب إمامنا إلى أن من الصوفية من ترك المصنع لمساعدة الإخوان وإدخال السرور على قلبه وربما حضر مجلس السماع ليعرف القوم كمال قوته فيقتدون به ويعلمون ان الكمال ليس بالوجد الظاهر وترك السماع لأنه لم يكن له خط روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو فتركه حتى لا يكون مشغولاً بما لا يعنيه[١] .

الأدب الرابع:

ومن آداب السماع أيضًا عند شيخنا الا يقوم السامع من جلسه ولا يرفع صوته بالبكاء طالما انه قادر على ضبط نفسه وهذا لا يعني أن البكاء أو الحركة غير مباح في السماع فهو مباح التي تثنيه كما يجوز استجلابا للحزن.

واما تمزيق الشباب فهو غير مباح فإنه يجب على السامع تمزيق ثيابه من شدة انفعاله بل عليه يضبط نفسه ويتحكم في انفعالاته أما إذا حدث ذلك دون ارادة منه فلا باس فخروج السامع من وعيه امر غير مستبعد فقد يحدث له وجد شديد جارف يفقده وعيه وفي هذه الحالة قد يمزق ثيابه أو يأتي من الأعمال ما لا إرادة له فيه ولا اختيار ويقول الغزالي ما نصه " أما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند الخروج من الأمر عن الاختيار"[٢].

ولذلك يذهب الغزالي الشيخ الرئيس إلى أن المستمع يجب أن يكون صادق الحال خال الفكر والقلب عما سوي الله وقد ماتت نفسه من الشهوة والهوى وتخلص من كثافة المادة لتكون سليمة على الفطرة مباشرة الأمور الأرضية الغائبة إذا ما سمعت ذكرًا روحانيًا بغشاها وجد مبرح مع لذه مفرحه[٣].

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٢) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٣٠٣

(٣) ابن سيناء: الإشارات والتنبيهات، ج٤، ص٨٢٥

ولا ريب أن صدق الحال مطلب عام للصوفية جميعًا في السماع والذكر فحسب بل في سلوك الطريق الصوفي فالصوفية جميعاً يهاجمون المدعين للطريق له إلى التصوف خاصة والإسلام عامة ولأن الصوفي يجب أن يكون مختلفا بمقام الصدق فيكون صادق مع نفسه وصادق مع الله ويتضح من قول محيي الدين " فمن شروطهم عدم المراءاة وحفظ آداب الشريعة دقيقها ما حكمها في الشرع، فإن الرجل إذا خان في آداب الشريعة سهل عليه أن يخون في الأسرار الإلهية والله تعالى لا يهب أسراره إلا الأمناء(١).

ويقول الإمام القشيري " ان الحركة تأخذ من كل متحرك وتنتقي من حالة مريدا أو شيخا الا ان تكون بإشارة من الوقت تأخذه من التميز فإن كان مريدا اشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك على اشارته (اي لأجلها) فلا باس إذا كان الشيخ ممن كان له حكم على أمثاله(٢) .

وإذا أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة فيساعدهم في القيام وفي اداء ما لا يجد منه يراعي من الاستيحاش لقلوبهم، ثمان صدقه في حاله يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم عند المساعدة معهم(٣).

الأدب الخامس:

ومن آداب الصحبة في مجلس السماع موافقة القوم فيما يقومون به من أعمال فإذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وقامت معه الجماعة فيجب ان يقوم جميع الحاضرين فإن ذلك من حسن الصحبة وآدابها.

وكذلك إذا جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقه صاحب الوجد ان يخلع عمامته فعليهم أن يفعلوا مثل ما فعل.

---

(١) ابن عربي: رسالة آداب الشيخ والمريد وانظر أبو أسماء المروزي الإنصاري- منازل السائرين (طبع طهران)

(٢) القشيري، الرسالة، ص١٥٧

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

ويقول الغزالي ما نصه موافقه القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف أو قام باختيار من غير اظهار وجد وقامت له جماعة فلا بد طائفة أو خلع الثياب أو إذا سقط منه ثوبه بالتمزيق فالموافقة في هذه الأمور من حسن المحبة والعشرة اذ المخالفة موحشة، ولكل قوم رسم ، ولابد من مخالفة الناس بأخلاقهم.... لاسيما إذا كانت اخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطيب القلب[١] .

وللصوفية تقليد خاص في السماع فإذا سقط ثوب يسميه الصوفية الخرق[٢]. من السامع الذي قام يتواجد فإن لهم سلوكا خاصا في التعامل معها يقول الإمام القشيري في ذلك" أي من حق المريد ان يستعيد ما سقط منه إلا أن يشير عليه الشيخ بتركه وله أن يدفع ما يقابله من المال ويأخذه.

وإذا وقع ذلك من بين قوم من عاداتهم طرح الخرقة وعلم أنهم يرجعون فيها فإن لم يكن فيهم شيخ تجب حشمته وحرمته وكان كان الطريق هذا المريد ولو كان لم يطرح فإنه يجوز إذا علم من عادة القوم انهم يعودون فيما طرحوا فإن القبيح انهم هو سنتهم في العود إلى الخرق على أن الأولى الطرح على الموافقة ثم ترك الرجوع فيه[٣] أن يأخذ الخرقة إذا وافق أهل مجلس السماع والأولى عدم الرجوع إلى أخذ الخرقة بعد طرحها.

أما السهروردي (٤٠٩هـ-٥٣٦هـ) فيفصل القول في حكم الخرقة التي تقع من السامع في مجلس السماع فيقول: " وأما حكم الخرق التي تقع في السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهي للجماعة، وما كان لقول وإنشاد منشد فإن لم يكن هناك جماعة فإنها للقوال خاصة، وإن كان هناك جماعة فقد اختلفت أقاويل المشايخ فيها، فذهب بعضهم إلى أنها للقوال لأنه لم وجد (أي: السامع) الفائدة في سره من جهته (أي: القوال) خلع عليه بدلا عما أتحفه به، وذهب بعضهم إلى أنها للجماعة والقوال فيها

---

(١) إحياء علوم الدين،ج٢،ص٣٠١

(٢) الخرق: جمع خرقة لنوع مخصوص من الثياب بيستعمله أهل الطريق.

(٣) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٧٤٧.

كأحدهم لأن بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القوال .... ومنهم من قال: استبداد بشيء منها، وإن كان أجنبيًا فما كان منها لها قيمة فيؤثر هو بها، وما كان من خريقات الفقراء فهم أولى بها، ومنهم من قال: إن كان القوال أجيرًا فليس له منها شيء، وإن كان متبرعًا فله ما يصلح له منها، وإذا قلنا أنها لهم فحكمها أنهم لا يشتغلون بها ما داموا في السماع، فإذا انقضى وقته جمعوها في الوسط، ثم إن كان محب لهم فحكمه أن يفديها بما يوجب وقته (أي: يدفع بدلا منها ما يستطيع دفعه) من غير معارضة فيها ولا مناداة عليها فإن ذلك استخفاف بحقها وحقهم، ثم إن كان هناك شيخ له حكم فالحكم فيها إليه من تخريق (أي تمزيقها إلى خرق مخبر) أو تبديل ورد على أصحابها[١]. أي إذا حكم الشيخ بأن ترد الخرق لأصحابها فترد.

وقال أهل الشام: الفقير اولي بخرقته وانكر الجمهور منهم ذلك ومنهم منة قال ما وقع منها (أي الخرق) على سبيل المساعدة (أي ليس من وجد حقيقي بل مساعدة صاحب الوجد) أو مشوبا بالتكلف فالرد أولى": أي ترد خرقه المتكلف والذي لم يشعر بالوجد[٢].

وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة ويكرهون (أي الصوفية) تخريق المرقعات إلا أن يكون تبركًا، وما كان منها من خرق الفقراء، فما كان يصلح منها للرقاع فتخزقيه ويفرق على الحاضرين دون الغيب (غير الحاضرين) لأن الغنيمة لمن شهد الواقعة وإذا حضر معهم غيرهم فالمحبون يعطون من الخرق[٣].

أما ابن عربي فهو يفضل ألا يحضر مجلس السماع إلا الصوفية وأن يكون القوال من بينهم إلا إذا افتقدت الجماعة من هو حسن الصوت ويعقدون مجلس السماع في المعتادة ثم يقف القوال لينشد وإذا لم يكن منم الجماعة فيجب منحه ما يقوي من

---

(١) ابن النجيب السهروردى ، آداب المريدين، ص١١٢.

(٢) ابن النجيب السهروردي، آداب المريدين،ص١١٢، يقول ابن الجوزي رأيت شيخا من الصوفية يقول خرقت خرقا في بلدنا فاصاب رجل فعملها كنفا فباعه بخمسة دنانير، انظر تلبيس إبليس، ص٢٦٣.

(٣) السهروردي، آداب المريدين، ص١١٢.

العطاء ويشجعه على الإنشاد حتى لا تفتر السامعين ويقول ابن عربي ما نصه: " ويمكن ان يقول القوال منهم من العامة، فمن شرطهم أن يجزلوا له العطاء ويرفدوا له في العيش ويباسطوه حتى لا يمسكوه من قلبه محبة الجماعة والطائفة من أحسن إليها"[١].

فإذا سرت الأحوال في نفوس السامعين توجدوا عند السماع لاستدعاء الأحوال والواردات الإلهية بعد قطع العلائق والحجب عن سبيل الله فالتواجد باختيار السامع وارداته[٢].

وهو يحدثه زيادة في الوجد واظهارا لمات يوجد في باطنه وتعبيرا عما يكن داخله من شرور، حتى إذا غلب عليه هذا الشوق ربما صاح وبكي باستغاثات يناجي بها الله، فهذا الطريق الشريف مقاما يخرج فيه المريد على ان يسمع من الحق ولا يرى أن أحدًا في الوجود يخاطبه غير الله تعالى فهو متمثل لكل ما يؤمر به فهذا المقام هو للنفس موت عن إرادتها، وهو الوجد الروحي[٣].

ويرى ابن عربي في الوجد البدني وهو ثمرة الجذب أنه يولد في الشخص حركات مضطربة وتسقط عنه ثيابه فينقطع القوال من الإنشاد ويأخذ الثوب الذي سقط من المجذوب وينتزع الحاضرون في الاستيلاء عليه تباركاً به كاثر ثمين وهبه الله لهذا المجذوب من النعم والالطاف.

وابن عربي ينكر ذلك التصرف حيث أن له نظرة فلسفية خاصة فهو يرى في التصفيق الإيقاعي والرقص وتمزيق الثياب في حالة الوجد يرى فيها جميعًا مظاهر للبعد عن الله وليست من علامات الاتحاد به، وإنما مردها إلى إغراء الشيطان ووساوسه[٤]. ومعروف أن ابن عربي من الصوفية القائلين بوحدة الوجود وكوني صوفي في حالة

---

(١) ابن عربي: رسالة في ادأب الشيخ والمريد ل١٩٩ظ محظوظ بالأزهر وتحمل رقم (١٠٧٠خاص-٣٣٥٨٠عام) مجاميع حليم، وانظر أيضًا سهام عبد المجيد ، المعرفة عند ابن العربي، من ص٢٣٣ إلى ٢٣٦.

(٢) ابن عربي: رسالة في آداب الشيخ والمريد ل١٩ ظ

(٣) انظر المرجع السابق، وانظر المواقع لابن عربي ايضا،ص١٦٥،١٦٤.

(٤) ابن عربي ، رسالة النجاة، ل٢،ج

الفناء يغني من نفسه ويفنى عما حوله ولا يشهد إلا الله فإن هذا جائز شرعًا، أما قوله: إن الله والعالم واحد أو أنه هو والله واحد، فهذا شطح خارج من ظاهر الشرع غير جائز لا حلول ولا اتحاد في الإسلام وإذا كان الصوفي في حال الغناء ببقي بربه ، والسنه كالغزالي وغيره يرفضونه تماما، غير أن ابن عربي يرى أن المتحد بالله في حال الغناء لا يأتي حركة ولا يصفق ولا يمزق ثيابه وإذا فعل ذلك فيكون من الشيطان وليس من الله لان الله لا يهب اسراره الا للأمناء من عبادة[١].

وقد نقد ابن الجوزي البغدادي المتوفي ٥٩٧هـ وغيره مسالك الصوفية في الوجد وقالوا ان التواجد الذي يحدثه المتواجدون من قوى صياحهم وتخبطهم فظاهر انه متعمل (أي مصطنع) والشيطان معين عليه وانه نقص حتى وان كان صاحبه صادق الحال ولذلك من جهتين:

أحدهما : أن المتواجد لو كان قوي العلم لأمسك (أي تماسك وامتنع عن التواجد بالحركات والصياح).

والثاني: أنه قد خالف به طريق الصحابة والتابعين ويكفي هذا نقصا[٢]، كما انتقد ابن الجوزي محمد بن طاهر وغيره في قوله: إن الخرقة إذا طرحت صارت ملكًا لمن طرحت بسببه، واحتجاجه بحديث جرير الذي قال له فيه: "جاء قوم مجتابي النمار فحض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الصدقة فجاء رجل من الأنصار بصرة فتتابع الناس حتى رأيت كومين من ثياب وطعام[٣]. قال والدليل على أن الجملة إذا قدموا عند تفريق الخرقة (أي توزيع أجزاءها الممزقة على الحاضرين) أسهم لهم حديث ابن موسى" قدم على رسول الله (صلى الله وعليه وسلم) بغنيمة وسلب فأسهم لنا[٤].

---

(١) الغناء عند أصحاب " وحدة الوجود" حال يتحقق فيها الصوفي من اتحاد موجود بالفعل كان قد حجبه عنه اشتغاله بانيته وهو يختلف عن وحدة" وحدة الشهود" انظر. التفتا زاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ١٥٧.

(٢) انظر ابن الجوزي البغدادي: تلبيس إبليس ص ٢٦٣،٢٤١

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة

ويعترض ابن الجوزي على استدلال الصوفية وخاصة محمد ابن طاهر بما يحدث من الرسول(صلى الله عليه وسلم) طلب صدقة لقوم فقراء فتتابع المسلمون أثناء السماع ويتقاسمها أهل السماع ويتأثر القوال بالجديد السليم منها أو يدفع صاحبه الثمن إلى القوال، واحتجاجهم أيضًا بتوزيع الرسول(ص) أيضًا بتوزيع الرسول الغنائم على المسلمين.

يرى ابن الجوزي البغدادي في احتياج الصوفية بأمثال هذه الأحاديث على ما يقومون به في احتجاج الصوفية بأمثال هذه الأحاديث على ما يقومون به من رمي الخرق في مجالس السماع وتقطيعها وتوزيعها على الحاضرين والقوال أو المنشد فيه تلاعب بالشرع فقال ما نصه "لقد تلاعب هذا الرجل (ويعني محمد بن طاهر) بالشريعة واستخرج بسوء فهمه ما يظنه يوافق مذهب المتأخرين من الصوفية، فإنا ما عرفنا هذا في أوائلهم، وبيان فساد استخراجه أن هذا الذي خرق الثوب ورمى به إن كان حاضرًا (أي: واعيًا لما يفعل) فما جاز له تخريقه وإن كان غائبًا (أي: في حالة فناء) فليس له تصرف جائز شرعًا لا هبة ولا تمليكًا، وكذلك يزعمون بأن ثوبه كان كالشيء يقع من الإنسان ولا يدري به فلا يجوز لاحد ان يمتلكه ، وان كان رماه في حال حضوره، لا على أحد فلا وجه لتملكه ولو كان الا بعقد شرعي، والرعي ليس بعقد ثم نقدر انه ملك للمغني فما وجه تصرف الباقين فيه، ثم إذا تعرفوا فيه خرقوه وذلك لا يجوز لوجهين : احدهما انه تصرف فيما لا يملكونه: "والثاني انهع اضاعة للمال"[١].

وشبه ابن الجوزي أحكام الصوفية في الملابس أو الخرق التي تسقط من المتواجدين أثناء السماع بالأحكام التي وقعت في الجاهلية مثل احكام البحيرة والسائبة وغيرها من الاحكام وان هذا مذهب خارج عن اجماع المسلمين[٢].

---

(١) انظر: ابن الجوزي ، تلبيس إبليس، ص٢٦٢

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة،(البحيرة هي الناقة التي تشق اذنها والسائبة هي التي لا تنتفع بها وكان أهل الجاهلية إذا نتجت خمسة ابطن اخرها ة ذكر شقوا اذنها وتركوها سائبة اى خلو سابيها فلا تركب، وقد أبطل الإسلام ذلك.

وقد قال ابن طاهر" أجمع مشايخنا على أن الخرقة المخرقة وما نبعث من الخرق المحاج الموافقة لها أن ذلك كله يكون بحكم الجمع يفعلون فيه ما يراه المشايخ"[١].

والحق أن هذا قول أغلب الصوفية الذين يبيحون السماع واحتجوا بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الغنيمة لمن شهد الواقعة"[٢]. وخالفهم الشيخ ابن إسماعيل الأنصاري وغيره فعل الخراقة على ضربين ما كان سليمًا وما كان مجروحًا قسم على الجميع ، واحتج بحيث سلمة بن الأكوع: "من قتل الرجل له سلبه أجمع"[٣]. فالقتل لا يعني هذا الوجد والفناء إنما وجد من جهة القوال (أي بسبب ما أنشد القوال) فالسلب له.

وقال ابن الجوزي تعليقًا على ذلك ما نصه " انظروا إخواني عصمنا الله وإياكم من تلبيس إبليس إلى تلاعب هؤلاء الجهلة بالشريعة وإجماع المشايخ الذي لا يساوي إجماعهم " بعرة " فإن المشايخ الفقهاء أجمعوا على أن الموهوب لمن له سواء كان مخرقا أو سليما ولا يجوز لغيره التصرف فيه ثم انم سلب القتيل كل ما عليه من ملابس) فما بالهم جعلوه ما رمي به ، ثم ينبغي أن يكون الأمر على عكس ما قاله الانصاري لأن المجروح من الثياب ما كان بسبب الوجد فينبغي دون الصحيح وكل قولهم هذا محال وهذيان[٤].

ويرى ابن طاهر أن الذي يطرح الخرقة (أي تقع منه في السماع أو يرمي بها ثناء تواجده) لا يجوز ان يشتريها من الجمع واستدل على ذلك بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (لا تعودن في صدقتك)[٥].

---

(١) انظر ابن الجوزي ، تلبيس إبليس،ص٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٤) المرجع السابق، ص٢٦٣

(٥) ابن الجوزي، تلبيس إبليس،ص٢٦٣

أما ابن الجوزي فينتقد ابن طاهر في احتجاجه بحديث عمرو بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: " انظروا إلى بعد هذا الرجل من فهم معاني الأحاديث فإن الخرقة الأطروحة باقية على ملك صاحبها فلا يحتاج إلى ان يشتريه[١] .

وقد أطال ابن الجوزي نقد مسالك الصوفية وقد حاول الغزالي الرد على من يعترض على مسالك الصوفية في مجالس السماع وعلي ما تعارفوا عليه من تقليد خاصة (بالخرق) فقال ما نص عليه (وقول القائل بأن ذلك فليس كل ما يحكم منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم وإنما المحظور ارتكابه أي تخالفه ولم ينقل النهي عن شيء من هذا " ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأسا كم في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام، فالمقصود منه الاحترام وتطيب القلب وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطيب القلب[٢]. ولم يكن من عادة العرب القيام عند دخول الداخل. وبالنسبة للرقص في السماع والاعتراض عليه فيرى الغزالي أن الرقص وإن كان مقرونا باللهو وتنفر منه الطباع وقد سيطر على الأوهام أنه مخالف للدين وينكر أهل الجد من ذوي أهل الجد من ذوي الدين فإن رجال الدين مهما بلغ بهم الجد لن يكونوا جاديين اكثر من رسول الله (ص) وقد رأى رقص الحبشة في المسجد ولم ينكر رقصهم لأنه كان في يوم عيد وإذا كان رقص من اللهو واللعب فاللهو واللعب مباح مع القوم ان كان يستقل ، فقلوب الحاضرين له إذا كانوا من أرباب القلوب صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد فإن قلت : ما باع الطباع تنفر منه الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو مخالف للدين فلا يراه على جد رسول الله (ص) وقد راي الجثة يزفنون في المسجد وما أنكره لما كان وهو مكروه لذوي المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق ذي المناصب فلا يجوز ان يوصف بالتحريم[٣] .

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٠٣

ويضرب إمامنا على ذلك مثلا يقول فيه "فمن سأل فقيرًا شيئًا فأعطاه رغيفًا أو رغيفين لكان ذلك مكتوبا في تواريخ الأخبار من جمل مساوية ويعيره به أعقابه وأشياعه، ومع هذا فلا يجوز أن يقال فعله حرام، لأنه من حيث أنه أعطى خبزًا للفقير حسن ومن حيث انه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح، فكذلك الرقص وما يجري مجراه من المباحة ومباحات العوام سيئات الابرار وحسنات الابرار سيئات المقربين ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب واما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم انه هو في نفسه لا تحريم فيه والله اعلم[١].

نلاحظ أن ما سبق من الآداب يخص السامعين وسنتناول فيما يلي الآداب الخاصة بالمنشد أو الأقوال والقصائد التي ينشدها، وأحب أن أضيف إلى الآداب السابقة ما ذكره السهروردي في آداب المريدين من ضرورة أن يتعلم المريد آداب السماع على يد شيخ يقصد ليؤدبه فيه وانه يكره للشبان القيام في حضرة المشايخ واظهار الحال، وانه لا رخمة للأحداث في القيام والتحرك وان كثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع وإذا كان الوقت[٢]. جدا فلا يجوز للمتكلف المداخلة والمزاحمة عن طريق الموافقة والمساعدة أيضًا، وأن الإنصات من آداب الحضرة[٣].

أما بالنسبة للقوال أو المسمع فإن محيي الدين بن عربي يقول انه حر فيما ينشد فلا يجب ان يقترح عليه السامعون شيئًا بعينه اما إذا ظهر لهم منه في أثناء المجلس سامه أي كسل أي ليس في اختياره الحمية المطلوبة اسكتوه وارجوه واشتغلوا بنفوسهم، فإن كان في الجماعة من ينوب منه، والا أخذوا في الذكر بموت واحد وطريقة واحدة وعلي نفس الإيقاع وهي أحسن عندهم وعند المحققين من قول القوال[٤] .

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين،ج٢،ص٢٠٣

(٢) الوقت : عبارة عن حالك في زمان الحال لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل

(٣) السهروردي: آداب المريدين،ص١٠٧،١٠٦

(٤) محيي الدين بن عربي: رسالة في آداب الشيخ المريد ل١٩ ومخطوط بالأزهر رقم ١٠٧٠ خاص- ٣٣٥٨٢٠ عام ، مجاميع حليم .

ويشترط الصوفية في المنشد أو المغني ان يكون رجلا ولا يحل السماع من امرأة لأنه لا يحل النظر إليها ولا سماع جمال صوتها في قراءة القرآن أو ترتيله أو إنشاد الموشحات والاغاني وان يكون حسن الصوت بليغ العبارة وان ينشد بنشاط وخشوع دون اظهار ملل ولا سامة ويفضل ان ينشد الأغاني الدينية ويكره سماع الغزل والاوصاف وان يبدا المجلس بالقران ويختم به[1]. ويفضل ان يكون من الصوفية.

بعد ان تفهمنا السماع، ووقفنا على معناه وعرفنا اثره في النفوس، ودوره في إثارة الوجد وكوامن النفس واتخاذ الصوفية له كوسيلة عملية لترقيق القلب وعرفنا كيف يعقد الصوفية مجلس السماع وانهم يتفاوتون في التأثير مما ادي إلى اختلاف مقامات السامعين ، والآداب التي يلتزم بها الصوفية في مجلس السماع حتى يثمر وانهم يفضلون سماع القرآن الكريم وبعد ان وقفنا على تحليل الغزالي لطرح السامع المبتدئ بالألحان والقصائد، مبينا اسباب تأثره بها.

علينا ان نتبين معا حكم الشرع في الغناء ومجالس السماع الصوفي وهذا ما سنتعرض له في الفصول التالية ونتبين رأي الذين مالوا إلى تحريم السماع وادلتهم وموقف الغزالي من السماع ومن المنكرين له. وسنبدأ قبل ذلك في تناول سماع القرآن الكريم ورأي الصوفية فيه، وهو سماع الكُمَّل من القوم.

---

(١) انظر المرجع السابق، وانظر أيضًا آداب المريدين للسهروردي،ص١٠٦،١٠٧ والاشارات والتنبيهات لابن سينا،ج٤،٨٢٥ ورسالة كلمات الصوفية أيضًا ل٢١٧.